

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع في الحضارة الإنسانية من قديم، وهو تأثير لا يتوقف عند الرقى بفن الزراعة وشق الترع وتدبير القنوات، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البردي. وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التي اشتقت منها الحروف الفينيقية، وأيضاً ليس هذا فحسب، فإنها أسهمت بقوة في نشأة العلم بمعناه العالمي، سواء العلم الهندسي أو الرياضي أو الطبي. وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها في الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجدوة المتفقدة لا تحمد مهما تراكم عليها من التراب. ونستطيع أن نتبين شرراً كثيراً من هذه الجدوة في عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم، فقد بنوا فيها متحفاً ضخماً ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب، وثانية لرياضيات والفلك، وثالثة للقانون والفلسفة، وضم أيضاً مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمئة ألف كتاب أو أكثر. وطبيعي أن تكون اليونانية لغة الدولة هي نفسها لغة العلم في تلك الدورة من تاريخ مصر، ويغزوا الإسكندرية يوليوس قيصر وتحرق المكتبة في أثناء غزوه. وتتطور الظروف سريعاً وتصبح مصر ولاية رومانية، وينشئ المصريون

مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس. ولا نصل إلى سنة ٣٩١ لميلاد حتى يثور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويدمروا معه المكتبة. ولا يعنى الرومان بالحركة العلمية في مصر أي عناية، قد عدوها مخزناً يمدهم بالقمح، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة. وظلت الإغريقية سائدة في لغة العلم، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب، وفي ذلك يقول بتلر: "قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (لميلاد) كانت باللغة السريانية، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرس في الإسكندرية"^(١٣).

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينياً ولإرهابهم بالضرائب الباهظة، ولذلك عد القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم. وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف، ولا سيما في الطب. وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين أفتتحها، فقد دحض هذا القول بتلر وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى

(١٣) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح العرب لمصر تأليف بتلر (الترجمة العربية) ص ٨٣ وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد الرحمن بدوي، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة العلمية حتى الفتح العربي.

إنما أحرقت تاريخيا في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون، بينما أحرقت مكتبها الصغرى قبل أن تخفق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف^(١٤)، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أي أساس تاريخي.

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل مكان إلى العلم والتعلم، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية، فبمجرد أن فتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجردون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليقفوا على تعاليم دينهم، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل. ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم. وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي اثبت طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية.

وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولائها، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم، وبدأ ذلك منذ زمن عمر^(١٥) بن

(١٤) بتلر ص ٣٤٨ وما بعدها وقارن بصفحة ٨٣ وما كتبه في الصل الثامن وبمقال ماكس مايرهوف في

الترا اليوناني.

(١٥) حسن المحاضرة ١/ ١٩٠.

الخطاب. وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين النسا في خصوصاتهم وللفتوى فيما يجد لهم من الشئون، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدّثين، وكان يسند إليهم الوعظ. ودائماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعنى بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً^(١٦) مولى ابن عمر يعلم الناس السنن، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد^(١٧) بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكون بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده. ولم تكن مصر تكتفي بما يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من الرأى والفقهاء المحدثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة. وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط، ومن المؤكد أنه كان مما يُذَكِّيه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة.

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر، فإن منهم من كان ذا سعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد املك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجية الخولاني القاضي ألف^(١٨) دينار كل عام، ومر بنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولى مصر لعهد المأمون وفرض لقاضي الفسطاط سبعة دنانير كل يوم. وكان الليث بن سعد الفقيه ثريا

(١٦) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٧.

(١٧) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٩.

(١٨) حسن المحاضرة ١/ ١٣٧.

ثراء طائلا، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدر على آلاف الدنانير، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنوياً مائة دينار. وكان ينثر مواله نثراً على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدثين والفقهاء^(١٩). وكان عبد الله بن عبد الله الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفاً ثانية ومن رجلين آخرين ألفاً ثالثة^(٢٠). وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء بأموالهم. ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس^(٢١) (أوقاف). وكان طيبات مصر وخيراتها صبت في حجور العلماء. فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين، مما هياً للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه.

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهى أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي، وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن تراعها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها، وغلب عليها حينئذ التلقي والتلمذة، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي، وتُسيغ ذلك كله وتتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت

(١٩) ابن خلكان ٤/ ١٣٠.

(٢٠) ابن خلكان ٣/ ٣٤.

(٢١) ابن خلكان ٣/ ٢٥٠.

تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه. ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تتزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا، فإذا هي تعدّهما لقراءة ورش ولاستقبال مذهب مالك إمام المدينة والحجاز. وليس ذلك فحسب، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس، وأذاعت رواية للسيرة النبوية، ستتحدث عنها فيما بعد، كانت إماما لكتب السيرة العطرة، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف، كما مر بنا في الفصل الماضي. ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوغا وانتشارا.

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علمائها المختلفين. ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فنرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدونة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة. ويبنى أحمد بن طولون جامعه المشهور ويرتب لإملاء الحديث النبوي فيه الربيع بن سليمان المرادي ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء^(٢٢) وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء، ويبدو أنها كانت كثيرة غذ يروى أنه كان يعطى القاضي بكار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة^(٢٣). ولا بد أن عطايا مقاربة كانت تعطى للقراء والفقهاء

(٢٢) خطط المقرئى ١٤٦/٣ وما بعدها.

(٢٣) ابن خلكان ٢٧٩/١.

والمحدثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب. وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب، بل أيضاً من الشام والعراق وإيران وخراسان. وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوي عن عملائها، وهم البخاري وأبو داود ومسلم وابن ماجة والنسائي^(٢٤) وأقام فيها الأخير وأخذها مسكناً وداراً له، وكان ينزل في زقاق القنديل، وأملى بها سُنَّته، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم.

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحكامها يُروون من يزل بها من العلماء وطلاب العلم، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أن ابن جرير الطبري المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو في نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلاً إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه. وكان شافعيًا، وجمعت الرحلة بينه وبين أبي بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابوري المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعي عن تلميذه: المزني والربيع بن سليمان المرادي إلى موطنه: نيسابور بخراسان، وأيضاً محمد نصر المروزي المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعي إلى سمرقند عن المزني وغيره من تلاميذه، وكذلك محمد بن هارون الروياني المحدث وله مسند. وجاءوا جميعاً إلى الفسطاط يدرسون على شيوخه، ويقال إنهم اجتمعوا يوماً ولم يبق عندهم ما

(٢٤) حسن المحاضر ١/٣٠٦، ٣٠٩ وطبقات الشافعية للسبكي (طبعة عيس البابي الحلبي بالقاهرة)

يمونهم، وكان ول مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار^(٢٥) وإذا كان طلاب العلم تُغَدَّقُ عليهم الأموال بمصر فما بالنابا كان يُغَدَّقُ على علمائها.

وما نصل إلى أواخر اقرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعي في خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحاق النيسابوري ومحمد بن نصر وأيضاً عن طريق عبدان المروزي الذي تفقه على المزنى والربيع بن سليمان، ويقول السيوطي إنه هو الذي أظهر مذهب الشافعي في خراسان^(٢٦) وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته. ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعي المصريين أبو القاسم الأنماطي عثر بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكي: هو الذي اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد، وعليه تفق شيخ المذهب هناك وحامل لوائه في بغداد والعراق أبو العباس بن سريج^(٢٧). أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها، ولم يتوله بعده لا في الشام ولا في مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس^(٢٨) وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية: القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة^(٢٩) ويمضى السبكي قائلاً إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين،

(٢٥) معجم الأدباء ٤٦/١٨ وحسن المحاضرة ١/٣١٠.

(٢٦) حسن المحاضرة ١٣٤٩.

(٢٧) السبكي ٣٠١/٢ وانظر ٢١/٣.

(٢٨) السبكي ١٩٧/٣ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩.

(٢٩) السبكي ٣٢٧/١.

ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه. وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق.

وتمضي مصر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويور هذا من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٣٠) ومعروف أن مصر كانت ملكية حتى قدوم الشافعي، فاقسم مصر مذهبه والمذهب المالكي، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع لا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بنى العباس، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة. أما جمهور القضاء فكان من المالكية، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي. وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمة هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل، وهى التي أتاح لقيام الحلقات الثلاث التي يدرس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد. وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد، ويظل هذا النمو مطرداً في زمن الدولة الإخشيدية، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو.

(٣٠) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ١٧٣.

وعملت الدولة الإخشيدية على إنا الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُعَدُّ على العلماء ويجزل صلاتهم، فقصد الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يمليه فيه على الناس، وعُنِيَ بتأليف مسند خاص به، وإليه رحل الدَّارَقُطْنِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره، وأعانه في تأليف مسنده مع من كان عينه فيه من المصريين وأقام لديه مدة، وبالغ ابن حنّابة في إكرامه، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئاً كثيراً وحصل له بسببه مال وفير^(٣١).

وظل ابن حنّابة يقول الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية، وطبعي ومثله يقوم على ذلك أن تمضي في النمو والنشاط. ومن نزل مصر حيثئذ المسعودي على بن الحسين المؤرخ المشهور. ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروح الذهب، وظل مقيما بها حتى لبّى نداء ربه سنة ٣٤٥ و قيل بل سنة ٣٤٦.

وتزداد الحركة العلمية نمو ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا، وما تكاد تمضي سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦-٣٨٦هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبني لهم دارا بجوار الجامع الأزهر^(٣٢) الذي كانوا يتخذوه مقرا لدعوتهم

(٣١) ابن خلكان ١/٣٤٧، ٣/٢٩٨.

(٣٢) صبح الأعشى ٣/٣٦٣ والخطط ٣/١٥٧، ٢٧٥.

الإسماعيلية. ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعاً إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة، على أننا نجد أبنة الحاكم يسند لى فقيهين مالكيين التدريب في هذا الجامع^(٣٣) مما يدل على أنه تحول سريعاً إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية. وفي أخبار وزير العزيز ابن كلس أنه كان يجري بأمره ألف دينار شهرياً على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين^(٣٤) مما يدل على أنه نشأت حينئذ حركة علمية كبرى لا لدراسات العلمية فحسب، بل أيضاً لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب. وأكثر دلالة على ذلك ما يروى من أن العزيز عني بإنشاء مكتبة في القصر، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد، وفي رواية على مائتي ألف^(٣٥) وكان أمنية القائم عليها الشابشتي^(٣٦) على بن محمد صاحب كتاب الديارات، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبري، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد. وما زال العزيز يعنى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين، حتى قيل إنها أصبحت أربعين خزانة مَلَاي بنفائس المجلدات في الحديث النبوي والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا. وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزمن المستنصر فإنها ظلت زاخرة

(٣٣) النجوم الزاهرة ٤/ ١٧٨.

(٣٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتز ١/ ٢٥٠ نقلاً عن يحيى بن سعيد الأنطاكي.

(٣٥) النجوم الزاهرة ٤/ ١٠١ والخطط ٢/ ١٢٨.

(٣٦) ابن خلكان ٣/ ٣١٩.

بالكتب، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضي الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية، وظل ابن صورة دلال الكتب يبيع منها للناس مرة من السنين^(٣٧) وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتب القاهرة والفسطاط جميعاً، فقد كانت تلحق بكل جامع خزانة للكتب، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق: جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفاً وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب^(٣٨)، وإنما تصور على إنزال المصاحف لجلالها، ولابد أنهم أنزلوا معها كثيراً من الكتب. ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والإطلاع.

وتؤسس في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم، ^ححمل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوى على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل، يقول المقرئ "حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ونهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والورق والأقلام والمحابر". وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب. وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وقفه كبيرة

(٣٧) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها الخطط ١٢٧/٢ وما بعدها.

(٣٨) الخطط ١٤٦/٣، ١٦٣.

للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى، وخص الفراشين والخضر والخبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين ديناراً سنوياً. ومن المؤكد أن الحاكم كان يبتغي بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيساً لها أحد دعايتها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نحلته طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعي المشهور وأكبر حفاظ الحديث المصريين في زمنه. وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجمالي إذ رأى إغلاقها، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلي بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أبيه نزار الذي كان يكبره، وخشى من ذلك حدوث ثورة، غير أن النزارية لم يلبثوا أن قتلوه، وقيل بل قتله الأمر بن المستعلي. غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية. (٣٩)

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في الفسطاط ظل مركزاً لدراسات أهل السنة. ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أسست إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب، بينما كانت الفسطاط حينئذ مسكن المصريين، كما كان شأنها قبل

(٣٩) انظر في دار العلم القديمة والجديدة الخط ٢/ ١٩٤، ٢١٨.

دخول الفاطميين، وكان مسجدها جامعة كبرى للدراسات السنية. ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بها بين العشاءين مائة مجلس وعشرة^(٤٠) للقراء والدراسات لسنية. ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يتراءون فيه ويفتون الناس أحياناً^(٤١)، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر، ولم يجد الحاكم بدّاً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة، من المحدثين والفقهاء.

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ويحاربونهم، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ أي لعهد العزيز على رجل وجد عنده موطأ الإمام مالك^(٤٢)، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسب والثلب. ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة، وكان فيه سفه وخبل، فلم يرق دماءهم وحدهم، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة. وكان بيت النعمان أهل البيوت المغربية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته، وولى بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيساً لدار العلم، كما مر بنا، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولى بعده مالك بن سعيد الفارقي، ولم يلبث أن سفك دمه^(٤٣)، وإذن

(٤٠) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبع ليدن) ص ٢٠٥.

(٤١) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر الخطط ٣/٣١.

(٤٢) الخطط ٣/٢٧٥.

(٤٣) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦.

فتقل الحاكم لجماعة من أهل السنة ليس دليلاً كافياً على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يبقى ولا يذكر من كبار دعاة وقضاة ورجال دولته الإسماعيليين.

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١هـ- ٤٢٧هـ) أمر بطرد^(٤٤) الفقهاء المالكية من مصر أي الفسطاط سنة ٤١٦هـ. وينقض هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حمل شعواء على من يؤلهون علياً وأباه الحاكم، وفيه يقول: "قالوا في آبائنا وأجدادها منكر من القول وزوراً، ونسبونا بغلوهم الأشنع، وجهلهم المستفطع إلى ما لا يليق بنا ذكره، وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضالّين"^(٤٥) ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينفيهم من البلاد. وكان لا يزال بمصر في عهده عد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفي بها سنة ٤٢٢هـ يقول السيوطي: "أكرم بمصر وتمول وسعد جداً، ومرض فكان يقول في مرضه: لا غله غلا الله عندما عشنا متناً"^(٤٦). فمصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لا تزال مركزاً كبيراً للإشعاع العلمي والدراسات الدينية، ينزلها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية، وينزلها طلاب العلم ليزودوا منها خير زاد. ونضرب مثلاً بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧هـ والمولود سنة ٣٥٤هـ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧هـ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤هـ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧هـ

(٤٤) الخطط ٣/ ٣١.

(٤٥) النجوم الزاهرة ٤/ ٢٤٩.

(٤٦) حسن المحاضرة ١/ ٣١٤.

لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس يقرئ فيه الناس^(٤٧) ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره^(٤٨). فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها.

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ الحديث في عصره. الإمام السلفي. ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الديلمي المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادي المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسي المتوفى سنة ٥١٨، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي^(٤٩) المتوفى سنة ٥٦٠.

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأولى أن يجد ذلك أبنائها، وأيضا فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يعدون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة

(٤٧) ابن خلكان ٥ / ٢٧٤.

(٤٨) معجم الأدباء ١٢ / ١٢٦ وكان أستا الداني في القراءات هو نفسه أستاذ مكى: عبد المنعم بن غلبون الحلبي نزيل مصر.

(٤٩) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من أثبات خاصة بهم في جزئه الأول.

الفاطمية، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات، بل لعلمهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة: "عندما عشنا متنا". ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشائعين حيثُذ في مصر: المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندي يشهد لهم بذلك شهادة ^{بيّنة} إذ يقول عنهم: "كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم.. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة ^{الشّعار} في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه ^(٥٠)". وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حيثُذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوماً.

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترصّون أهل السنة، وحقاً حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان فقيهم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده، ثم ولوها بعض شيعتهم. ويبدو أنهم أخوا في عصر المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) يتركون هذه السياسة، إذ عيّنوا على رأس القضاة شافعيًا هو أبو عبد الله محمد ^(٥١) بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤. ويبدو أن كثيرين من القضاة

(٥٠) صبح الأعشى للقلقشندي ٣/ ٥٢٠.

(٥١) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوى في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية

الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجهمالي (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) ويصبحان ولي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل^(٥٢) السنة ولا يتعصبان ضدهم. وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة: شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا^(٥٣) ويظهر أن هذا أصبح تقليدا من صنع أحمد الأفضل ها الصنيع سنة ٥٢٥.

وينزل في الإسكندرية السلفي أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلار في عهد^{الخلافة} الح^{فيدة} الفاطمية

(٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلفي فاحتفل به وزاد في إكرامه وبنى له مدرسة فوّض تدريسها إليه، يقول ابن خلكان: وهى معروفة باسمه إلى الآن أي في زمنه^(٥٤) وفي صبح الأعشى سجل بإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفي والقيام على نفقة من فيها من القراء والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة، مع بيان أنه أعدّ لهم جميعا فيها المثنوى والمسكن. وبذلك يكون ما ذكره المقرئ وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح^(٥٥) فقد كانت بها

في زمن الفاطميين ١ / ٤٠٤ وما بعدها.

(٥٢) المغرب ص ٢١٦.

(٥٣) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥.

(٥٤) ابن خلكان ١ / ١٠٥.

(٥٥) الخطوط ٣ / ٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢ / ٢٥٦.

مدرسة السلفي المذكورة، وكانت مدرسة سنية شافعية. ونفس دار العلم يمكن أن نعدّها مدرسة بالمعنى الكبير إلى كان لنظامية بغداد، إكانت مؤسسة علمية كبرى.

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام. وفي غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا في الفصل الماضي، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أشد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، وتتطور الظروف سريعاً، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم، ويكاد يقضى على الصليبيين في الشام إلا قليلاً ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب. وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة، إذ كان محباً للدراسات الإسلامية شغوفاً بها وخاصة بالحديث النبوي مما جعله ينزل الإسكندرية ليلتقاه على السلفي أكبر حفاظه في عصره. وكان يستمع إلى الفقهاء ويروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطرطوشي المالكي^(٥٦)، بينما كان السلفي شافعيًا، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب. ولعل في ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذهبين، بل لقد ضم إليهم أيضاً فقهاء المذهب الحنفي، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط، أنشأ اثنتين منها في أثناء وزارته للعاقد آخر

(٥٦) انظر في ذلك ابن واصل في كتاب مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب ١ / ١٩٥ وما بعدها وكان يرحل بولديه: العزيز والأفضل سلطاني مصر ودمشق بعده للسماح من السلفي وفقهاء الإسكندرية، انظر حسن المحاضرة ٢ / ١٩.

الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦: مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ إلى فوض إليه تدرس الفقه الشافعي بها ثم عرفت باسم المدرسة الشريفة، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذي كان يأتيها من ضيعة بالفيوم وقفها عليها صلاح الدين، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعي والثانية بجوار مشهد الحسين، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية^(٥٧) والمهم أنه رتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدين، فقد كان نظام الإعادة معروفاً حينئذ، ورتب لها أيضاً الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها في حياته وبعد وفاته، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة. وكان كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات في عصرنا، فمع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها.

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة في عهد الدولة الأيوبية لا في عهد صلاح الدين وحده، بل أيضاً في عهد من خلفوه من الأيوبيين، إكانوا في جملتهم علماء، وكذلك كان وزراؤهم وأمرائهم منذ عهد صلاح الدين نفسه، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها في الفسطاط والقاهرة عددها المقريري- والطريف أنه اشترك معهم في إنشائها بعض التجار- وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^(٥٨) ويبدو أن إحصائيته غير كاملة، فإنه لم

(٥٧) ابن خلكان ٢٠٦/٧ وقارن بحديث المقريري عن المدارس في الجزء الثالث من الخطط.

(٥٨) انظر حديث المقريري في ذلك بالخطط ٣/ ٣١٣ وما بعدها.

يقف عند مشهد الحسين وقفةً توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس. ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعي وراء المدارس التي أنشأها صلاح الدين، إحداها أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العز وهو اسم المنازل التي أقيمت فيها. وكان مما وقفه عليها جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢. والثالثة المدرسة الفائزة بناها الوزير الفائزي سنة ٦٣٦. وبالمثل نستطيع أن نميز للفقهاء المالكي بجانب المدرسة القمحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصباحية التي بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل. وأيضاً نستطيع أن نميز للفقهاء الحنفي بجانب المدرسة السيوفية التي أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداها سميت الأزكشية بناها أحد الأمراء، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء. وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقهاء الشافعي والمالكي مثل مدرسة القاضي الأفضل، وأخرى بنيت للفقهاء الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التي أنشأتها السيدة مؤنسة ابنة السلطان العادل. وبنى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة: مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، وهى أول مرة أو أول مدرسة تعنى فيها مصر بدراسة الفقهاء الحنبلي. وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تعنى بالحديث النبوي تسمى دار الحديث الكاملية نسبة إليه. ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تغرى بردى أن جميع المدارس

التي أنشأها صلاح الدين لم تسم منها مدرسة باسمه، مع ما رتب لها من الأوقاف العظيمة، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة^(٥٩).

وهذه المدارس جميعاً كانت تعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكلك الدراسات البلاغية، لأن الفقيه في أي مذهب لا يتم تكمونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات. وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسلامية، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمي، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كزان ينفق على مدارس السالفة، وفي ذلك يقول ابن جبير الذي زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨: "ما من جامع من السلطان (صلاح الدين) يعم جميع من يأوي إليها ويلزم السكنى فيها، تهون عليه في لك نفقات بيوت الأموال^(٦٠)".

وكانت الإسكندرية في عهد الفاطميين مثل الفسطاط مركز لدراسات أهل السنة، وقد بنى فيها ابن السلار - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السلفي الشافعي، ويبدو أن صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول: "ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والحارس الموضوعه فيها لأهل الطلب والتعب، يقدون من الأقطار النائية، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرسا

(٥٩) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦.

(٦٠) رحلة ابن جبير (بع لديه) ص ٥٢.

يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله^(٦١) وأخذت المدارس تعم مدن مصر الكبرى بينهما ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده، وأيضا أمراء بيته، مع ذلك أن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية^(٦٢) وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة^(٦٣) وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية^(٦٤) بها. ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة. وكانت بها جميع الجوامع والمساجد، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمي بجامع العطارين الذي بناه بدر الجمالي، وظل به نشاط علمي وافر زمن الأيوبيين. وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والمحلة وطنطنا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا، إذ نقرأ في كتب التراجم منحين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات.

وتنشأ- بجانب المدارس السالفة- مدارس كثيرة في عهد المماليك، وبعدها المقريري وملك تاريخ إنشاء والأوقاف التي رصدت لها، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحيانا بعض نساءهم وأمهاتهم، وقد عد للشافعية منها أربعة: المدرسة^(٦٥) الطيرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليفة، وللحنفية ثلاثا: الغزنوية والجمالية والمهمندارية. ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين

(٦١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها.

(٦٢) ابن خلكان ٤٥٦/٣.

(٦٣) الطالع السعيد للإدقوى (طبع مطبعة الجمالية) ص ٨٥.

(٦٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠.

(٦٥) أنظر بما بل من حيث هذه المدارس خطط المقريري ٣/ ٣٤٠ وما بعدها.

مثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية، ومثل المنكوتيرية للمالكية والحنفية. وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر.

ويقول ابن بطوطة الذي زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لعهده محمد الناصر بن قلاوون:

"أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها". وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك. ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرة للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر. أما الظاهرة^(٦٦) فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبنى بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لن به من الأطفال الجرايات والكسوة، وأوقف عليها الربع أو الحي المعروف اليوم باسم تحت الربع، وكان ربعا كبيرا مملوءة بالدور والخوانيت. أما المدرسة المنصورية^(٦٧) فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب

(٦٦) انظر في هذه المدرسة الخطط ٣/ ٣٤٠.

(٦٧) انظر في هذه المدرسة الخطط ٣/ ٣٤٢ والسلوك للمقريزي (طبعة القاهرة) ١/ ٧١٦ وما بعدها و١٠٠٠ وما بعدها.

مدرسا وثلاث من العيدين ومقرئا للذكر الحكيم وخمسين طالبا، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشيها الراتب، وبنى بجوارها مكتبة لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم، وأسند لفقهين القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيام والكسوة في الشتاء والصيف. وبنى تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرئا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكلك مع المقرئين. وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب، وجعل لها أمينا ومساعدين له وفراشين وبوابين. وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب^(٦٨) الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة. وبالمثل كان كل من يبنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعملائها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يخلقون بها مساكن لهم.

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك، فقد كان يشركها الجوامع والمساجد. في مقدمتها الجامع الأزهر، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما عطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلي نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقهاء الشافعي ومحدثا للإمام الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة^(٦٩). وسرعان ما خذ الأزهر دوره التاريخي العظيم، فإذا أكبر جامعة للدراسات الإسلامية واللغوية. ويشيد المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات في هذا الجامع أو الجامعة قائلا: "لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه والاشتغال بأنواع العلوم:

(٦٨) الخطط ٣/٣٤٦.

(٦٩) الخطط ٣/١٦٠ والسلوك ١/٥٥٦ وما بعدها.

الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفسي ما لا يجد في غيره^(٧٠). واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال، فرصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين. وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمي جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين^(٧١) سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوي، والحق به مكتباً لتحفيظ القرآن الكريم. وبالمثل عني ببيرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب^(٧٢) فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوي والقراءات، والحق به خزانة كتب نفيسة.

وهذا النشاط العلمي في مسجد القاهرة والفسطاط ومدارسهما كان يلتقي به نشاط مماثل في الإسكندرية ومدن مصر الكبرى. وهو النشاط كان يشرك علماء مصر في كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التي أخذت تفسح لهم في دارسها، بل أخذت تضمن إلى صدرها، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغي أن تعمل بقوة لتحميها إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيراً غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها، وكأنها انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة، فهي تعنى عناية واسعة بإنشاء

(٧٠) الخطط ١٦٣/٣.

(٧١) الخطط ١٤٨/٣ وحسن المحاضرة ٢٤٩/٢.

(٧٢) الخطط ١٦٥/٣ ويقول المقرئ إنه رصد له أوقافاً كثيرة في الجيزة والصعيد والإسكندرية.

الدارس، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسند إليهم كثيرا من المناصب العلمية، وأحيانا المناصب الوزارية، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران: القاضي الفاضل والعماد الأصبهاني، والأول شامي والثاني عراقي الثقافة أصبهاني المولد. وأيضاً فقد نزلها كثيرون من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات. ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للسيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمني - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوي وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يحيل إليه أنه لم تبقى بلدة في العالم الإسلامي العربي إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم في هذه الحقب التي امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢، بل ظلت من ذلك بقية في أيام العثمانيين.

ونضت مصر بور مهم في حماية العلوم، فقدت رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفا من ضياعه، وخاصة أمهات التراث العربي وأصوله، وانتهجت لذلك نهجا سديدا في توثيق روايتها وأخذها عن حرروا صياغتها وضبطها أدق ضبطن فهي لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعا عن الشيوخ الثقات ويرويها جيل عن جيل بمنتهى الدقة ولا يرويها إلا من شهد له شيخ بأنه جدير بروايتها، على نحو ما هو معروف في نظام الإجازات. ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا، ووضعت عليها شروحا، وشرحت الشروح أحيانا، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروعا أن علماءها كانوا في هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثاني

للهجرة حتى زمنهم رأيا غلا دونوه، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشيها إلى ما يشبه دوائر معارف في العلم الذي تتناوله، إذ تعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية. وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويري المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعي والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطريق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقم الأزمنة حتى زمن النويري. ويشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ وهو في جغرافية العالم العربي والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها في الشعر وانثر على مر السنين. ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب "المستطرف في كل فن مستظرف" لمحمد بن أحمد الأبشيهي^(٧٣) المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ باب في القرآن وفضله العقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجلود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك.

ولعل في ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التي صببت على مصر وخاصة أيام المماليك. إذ نعت المؤرخون للأدب العربي هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود في جميع جوانب الحياة العلية، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا،

(٧٣) انظر في الأبشيهي الضوء اللامع ١٠٩/٧.

وسيتضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرف في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمي، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك، وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين، وعملوا على أذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة.

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر، وجردوا السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدهم في السفن إلى عاصمته استانبول. وجرد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة، وما توفي سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل ملهم قاضي العسكر. وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر، ومع ذلك ظلت جذوات منها تنقد في الجامع الأزهر وفي بعض الدارس، إذ نسع في ترجمة هذا العالم أو ذاك أنه كان يدر في المدرسة السيوفية الحنفية التي أنشأها صلاح الدين أو في المدرسة الصالحين التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أو في المدرسة الأقبغاوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون، وبذلك الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئ في خطه مثل المدرسة السنانية^(٧٤) ويردد ذكر القبطانية والجنبلانية والأشرفية^(٧٥) وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى.

(٧٤) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١/ ١٦٢ و ٢٢٠.

(٧٥) الجبرتي ١/ ٧٥، ٨٦، ٢٢٠.

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملاً مهماً في خمود الدراسات العلمية بها، فإن مصر ظلت ملاذاً للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط، وظلت القاهرة موئلاً لهم جميعاً يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحياناً إلى بعض المدارس، حتى إذا نضج أحدهم علمياً أصبح شيخاً يتحلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أو في أحد جوامع القاهرة ومدارسها، وقد رجع إلى بلاده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية. ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادي صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة باسم خزانة الأدب والمقري التلمساني أكبر مؤرخي الأندلس، وبها الدين العامل صاحب الكشكول. وعربت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاليته مؤلفاً أدبياً مثل راغب باشا وإليها سنة ١١٦٠ وموسوعة "سفينة الراغب" مشهور. وقد ألف بالقاهرة الزبيدي اليمنى تاج العروس: شرحه على القاموس المحي للفيروزبادي. وبذلك ظلت مصر في العهد العثماني المظلم حامية للتراث العربي المتبقي بها وراعية لعلماء العالم العربي، بفضل مصابيح العلم التي كانت تضيء بها خاصة في الجامع الأزهر. وما زالت شهرته تدوي في العالم الإسلامي إلى اليوم، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر، ويعد الجبرتي شيوخه من سنة ١١٠٠ للهجرة على أن ينتهي على الشيخ عبد الله الشرقاوي معاصر الحملة الفرنسية.

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا في أول هذا الفصل أن مصر أسهمت في نشأة العلم بمعناه العالمي سواء العلم الهندسي أو الرياضي أو الطبي، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسي، وتشهد لعملها الرياضي^(٧٦) برديات رياضية فرعونية مختلفة، وبالمثل تشهد للعلم الطبي برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمي العالمي نشأ في ديارها ورقيا رقيا بعيدا^(٧٧).

وكان من الممكن أن تستمر صر في حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبي، واستطاعت أن تمصر البطالة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها، فنهضت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراستها الهندسة والرياضة والفلك والطب، أما الهندسة فشاد صرحها أقليدس في القرن الثالث قبل الميلاد، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم، وقد ظلت تدرس كتبه في العربية وفي أوربا حتى القرن الماضي^(٧٨)، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة

(٧٦) انظر العلم عند العرب لأندوميلي (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم) ص ٣٣ وما بعدها.

(٧٧) الدوميلي ص ٣٤ وما بعدها.

(٧٨) ألدوميلي ص ٤٣ وقصة الحضارة لول ديورانت (نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨.

كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه، وقد اشتهر بتشريحه العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية^(٧٩). وغزوا مصر الرومان، كما أسلفنا، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم الهليني في العلوم. ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية، حيث ظل يرصد الأجرام المساوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه "النظام الرياضي للنجوم" وقد سماه العرب "المجسطي" أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان. وله كتب أخرى منها موجز جغرافي، وكان لبحوث المجسطي وغيره تأثير عظيم ف علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب^(٨٠). ويلقانا هيرون، وهو أرشميدس صغير كما يقال، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية، وتاريخه غير معروف فمن العلماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد^(٨١). ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد على مذهب فلسفي كان تجديداً لفلسفة أفلاطون، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة. وظل نشاط مصر في الطب عظيماً، وقد نزلها جالينوس (١٣١-٢٠١ م) ولم يكتف

(٧٩) قصة الحضارة ٨/ ١٥٦ وماكس مايرهوف في كتاب التراث الثوانين للدكتور عبد الرحمن بدوي

ص ٤٥.

(٨٠) قصة الحضارة ١١/ ١٠٦ وألدوميل ص ٤٥ وما بعدها.

(٨١) الدوميل ص ٤٥، ٤٧ وقصة الحضارة ١١/ ١٠٨.

بمقامه فيها بالإسكندرية. فقد جاء خلال ديارها حتى وصل جنوبيها والنوبة وبواديها^(٨٢) ومما لا ريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتيبة وتلخيصها، وقد عقد ابن أبى أصيبعة لأعلامها فصلا مستقلاً^(٨٣). وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يهرع إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية، وكان حسب الطبيب للدلالة على براعته أن يقل إنه تعلم في الإسكندرية^(٨٤) ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من "راس عين" بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أمر عمر بن عبد العزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية. وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يحيى النحوي شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأبامي^(٨٥) ومما لا شك فيه أن القبطية شركت اليونانية لزمن الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية. ومر بنا أن السيريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد.

(٨٢) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) للقفطى (طبع ليدن) ص ١٣٢.

(٨٣) طبقات الأطباء لابن أبى أطيبة (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقفطى ص ٧١.

(٨٤) ماكس ما يرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة.

(٨٥) انظر مقاله ما يرهوف في كتاب التراث اليوناني ص ٣٧ وما بعدها.

ويظل مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أي بلد فتحه ما به من علم وفلسفة، ومر بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاصر أحرق مكتبة الإسكندرية، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلاً، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٨٦) فلعله من باب المبالغة، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطبائها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف. أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية، ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي. ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ أهتم بعلم الكيمياء، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا ينزلون بمصر وتفصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتاب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي^(٨٧). فكان الطبيعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية على عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه أهتم فعلاً بنقل كتاب أهرون القس الإسكندري في الطب وكلف بذلك ما سر جويه البصري كما هو معروف، ولو أنه نقل حقاً علماء

(٨٦) راجع مقاله ما يرهوف السالفة وابن أبي أصيبعة ص ١٧١.

(٨٧) الفهرست ص ٣٥٢.

الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة كلف أحدهم ينقله. وربما كان أكثر من هذا التصور منطقاً أن يقال إن كثيرين من علماء الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها، ويغلب أن كونوا ق حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة. ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح لحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة، وإن فقدت كثيراً من نشاطها. يدل على لك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون أنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة، كما يدل على ذلك ابن ابجر طبيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته، ويبدو أنه تعرف عليه حين كان أبو واليا على مصر (٦٥-٨٦هـ) ويقال إنه أسلم على يده^(٨٨)

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالاً. يدل على ذلك أن نجد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) يستدعى لها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان^(٨٩) بطريق الإسكندرية. وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء، ويذكر الدوميلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن

(٨٨) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبجر الإسكندري وابن أبجر آخر. انظر مقالة ما يرهوف

ص ٦٤ وما بعدها.

(٨٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠.

الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط^(٩٠) ومن اشتهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مر بنا في الفصل الماضي. وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢-١٤٧هـ) باتخاذ المارستانات^(٩١) ومعروف أنها كان مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية. وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون، وينشئ مارستانا جديدة أنفق عليه ستين ألف دينار، وكان به قسم للمجانين وحمامان: حمام للرجال وحمام للنساء، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه^(٩٢) ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف^(٩٣) الطولوني، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتها وعلاجها وأدويتها ظل يؤلفه في نحو أربعين عاما من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢. وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات^(٩٤) مختلفة. ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس^(٩٥) بن جريج، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا

(٩٠) الدوميلي ص ٢٦٩.

(٩١) خطط المقریزی: مارستان المغافر ٣/٣٨٦.

(٩٢) الخطط ٣/٣٨٦.

(٩٣) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها.

(٩٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥.

(٩٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤.

يراعها غير طبيب، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد، والباسلي وكان طبيباً متميزاً في معرفة الأدوية المفردة، وله فيها كتاب ألفه لكافور^(٩٦).

وفي ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب طلبت ناشطة في مصر، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا، وأيضاً ظلت الرياضيات، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصري، عالم زمنه الرياضي، والمظنون أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل الرابع، واشتهر أنه نقح علم الجبر الذي أكتشفه الخوارزمي. ويذكر الدوميلي أن له رسالة في المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتب الطرائف في الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية، ويذكر أيضاً أن لكارينسكي كتاباً عن علم الجبر باسم الجبر عند أبي كامل^(٩٧) ويقول القفطي إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا في علمه، لعل منهم على بن أحمد العمراني الموصللي العالم بالحساب والهندسة الذي توفي سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطي عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبي كامل شجاع أنه كان عالماً حاذقاً في الرياضيات والهندسة. وكأن مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تتم بهذا الجانب من تراثها العلمي حتى أنتجت فيه أباً كاملاً شجاعاً.

وحقاً نهضت بغداد كما مر بنا في كتابي العصر العباسي الأول والثاني بترجمة التراث اليوناني في العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسي والهندي فنقلتها إلى العربية، وكل ذلك تحول سريعاً إلى تراث عربي عام للأمة في بغداد والقاهرة وغيرهما

(٩٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥.

(٩٧) انظر في شجاع بن أسلم الدوميلي ٢١٦، ٢١١ وبروكلمان ٤/ ١٩٣ والقفطي ٢١١، ٢٣٣.

من بلدان العالم العربي الكبيرة، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن أبتكر الخوارزمي علم الجبر، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضي المصري لتنقيح جبر الخوارزمي. واهتمت البيئات العربية بتنقيحه، فإذا على بن أحمد العمراني الموصلية يعني بشرحه وتفسيره لهذا التنقيح في كتاب مستقل نوه به وبأصله القدماء.

وظل النشاط محتدماً في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد^(٩٨) بن عبد الله العتقي وأبى^(٩٩) عبد الله بن القلانسي، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصديقي المصري، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تنقيح زيجه لعهد الحاكم أبنه وقد أقام له مرصداً ضمّاً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وإنه كان يشغل أرب مجلدات ضخمة، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول^(١٠٠) منه، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩.

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أو على الحسن بن الهيثم البصري^(١٠١) وفرح الحاكم بقدمه وخرج للقاءه على باب القاهرة. ولما وقف

(٩٨) القفطى ص ٢٨٥.

(٩٩) القفطى ص ٤١٠.

(١٠٠) انظر في على بن عبد الرحمن الصديقي ألدوميلي ٢١٣، ٢١٩ وبروكلمان ٤/ ٢٢٤ وابن خلكان

٣/ ٤٢٩ والقفطى ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لنلينو ١٨٦، ٢٨١.

(١٠١) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من تاريخ الأدب العربي، وراجع ابن أبى أصيبعة ص

على خبل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر، ويقال إنه كان يكتب المجسطي في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات أقليدس في الهندسة وبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا. ويبدو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكنا له ومقاما لأكثر من ثلاثين عاما، وبها ألف كتابه "المناظير" في العدسات وانعكاسات الضوء، وقد تُرجم قديما إلى اللاتينية، وله تأثير علمي عالمي بعيد. وعليه تتلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطبائع والرياضات والفلك والطب والفلسفة. والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبائع والفلك والفلسفة، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب. وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر. وما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السِّنْدِي من أنه رأى^(١٠٢) خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكره نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعهد الدولة البويهية.

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلسف هو مبشر^(١٠٣) بن فاتك، ويقول القفطي قراء عليه فضلاء زمانه. ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجري لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول

٥٥٠ وألدومبيلي ص ٢٠٦ وما بعدها.

(١٠٢) القفطي ص ٤٤٠.

(١٠٣) القفطي مصر ٢٦٩ وابن أبي أصيبعة ص ٥٦٠.

المقريري: "وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمي وغيرهم يطلق لهم الجاري في كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم في كل سنة^(١٠٤)" ثم يذكر أنه فكر في عمل مرصد ضخّم فنشط في إقامته، ويذكر المقريري أنه كان يعمل به من المهندسين أو جعفر بن حسداي والقاضي ابن أبي العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجا بن سند الساعاتي الإسكندرية المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلي المهندس إلى غيرهم من الحساب الرياضيين والمنجمين. ويعدد من ذكرناهم أولاً ويضيف إليهم ابن دياب والقلعي وأبا نصر تلميذ سهلون. وينزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبي الصلت المتفلسف والأديب الأندلسي، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلماؤها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصر وعلى بن النضر، وقد ترجم لها القفطي^(١٠٥) وذكر المهندس المصريين أبا على المهندس، وله أيضاً ترجمة في القفطي^(١٠٦)

وتتوج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر، ومن أطباء موسى^(١٠٧) بن العازار الجراح اليهودي، ومن أطباء وأطباء ابنه العزيز أبو عبد التميمي لا المقدسي^(١٠٨) وأحمد^(١٠٩) بن محمد البلدي وأبو سهل كيسان^(١١٠) بن عثمان واعين^(١١١) بن

(١٠٤) خطط المقريري في ذكر الرصد ١/ ٢٣٣ وما بعدها.

(١٠٥) القفطي ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب.

(١٠٦) القفطي ص ٤١٠.

(١٠٧) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥.

(١٠٨) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦ والقفطي ص ١٠٥ وبروكلمان ٤/ ٢٩٠.

(١٠٩) ابن أبي أصيبعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٤/ ٢٩١.

أعين ومنصور^(١١٢) بن مقشر. ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء في عهده من مثل إسحق^(١١٣) بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه^(١١٤) وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبي القاسم عمار^(١١٥) بن علي وله المنتخب في بلاد أمراض العين. ومن أهم الأطباء حينئذ ابن^(١١٦) رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما، ودوت شهرته في العالم العربي مما جعل علماءه يكتاتونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب، وممن رحل إليه من بغداد طبيبها ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما: "كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها". وقد ترجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية، ونشر مرارا شرحه للمقاولات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك.

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه، وأيضا بفضل دار العلم، فقد كان الطب يدرس فيها، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر

(١١٠) القفطى ص ٢٦٧ وانظر ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٨.

(١١١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٦.

(١١٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩.

(١١٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٤.

(١١٤) الدوميلي ص ٢٤٠.

(١١٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ والدوميلي ص ٥٤٨ وبروكلمان ٤/٣٠٣.

(١١٦) القفطى ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ٥٦١ والدوميلي ص ٢٤١ و٢٥١ وما بعدها.

منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه^(١١٧) وقد يكون في ذلك ما يد على المنطق كان يدرس بها وهو ما يتصل به من الفلسفة. ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على^(١١٨) بن سليمان، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة. ومن خلفوا ابن رضوان تلميذ إفرائيم^(١١٩) بن الحسن اليهودي، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة، وكان شغوفاً بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها، وكانت لديه منها خزانة كبيرة، واشتهر بأنه كان عنده دائماً نساخ يكتبون له ما يريد من الكتب، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجراً عراقياً من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد، وهم بحملها على العراق، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراقي عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر، ويقولون إنه حوالها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد. ومن تلاميذ إفرائيم سلامة^(١٢٠) بن رحمون الطيب ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريب كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة. ونظّل نسمع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة فحسب، بل أيضاً في المدن مثل الحسن^(١٢١) بن منصور طيب إسنا

(١١٧) خطط المقرئى ٢/ ٢١٨.

(١١٨) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠.

(١١٩) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧.

(١٢٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والقفطى ص ٢٠٩.

(١٢١) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٠ والطالع السعيد للإدفعوى ١٢٠.

بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة. ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن^(١٢٢) العين زربي وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد، ويقول ابن أبى أصيبعة: "كان له تلاميذ عدة يشغلون عليه" وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر^(١٢٣) بن المعرف. ولحقت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي.

ولعل يما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين، لأن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوى، وكان دعائها يلقتون تلاميذهم الفلسفة من مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية. ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعائها كانوا دائماً من المغرب أو من الشام أو من إيران. ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم لفلسفة عن طريق دراستهم للطب والرياضيات والطبيعات، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم ف ابن أبى أصيبعة والقفطي سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة.

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح

(١٢٢) ابن أبى أطصبيعة ص ٥٧٠.

(١٢٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧١.

الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس. وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل، ويدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الأمدي المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل^(١٢٤) الدين الخونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا- كما يقول السيوطي- عز الدين بن عبد السلام. ولعل في ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها. فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها في جميع فقهاء زمنه الشافعية. ويرى في عهد الأيوبيين مهندس رياضي كبير هو قيصر^(١٢٥) بن أبي القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من اصفون بالصعيد، كان فقهاء حنيفا عالما بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة، وهو الذي أقام لأمير حماة نواحير نهر العاصي البديعة التي لا تزال تنحدر المياه فيها من علو شاهق إلى اليوم، مؤلفة بذلك أقام لأمير حماة نواحير نهر العاصي البديعة التي لا تزال تنحدر المياه فيها من علو شاهق إلى اليوم، مؤلفة بذلك منظراً بالغ الروعة. وكان فلكياً مبدأً، أنشأ كرة سماوية عظيمة لا تزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطني لمدينة نابولي بإيطاليا.

(١٢٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤١ وطبقات الشافعية للسبكي ٨/ ١٠٥.

(١٢٥) انظر في قيصر حسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ والطالع السعيد ص ٢٥٩ وألدوميل ص ٣٠٥.

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين، وقد بدأ هذا الاهتمام باتخاذهم مارستاناً ضخماً في القاهرة وفيه يقول ابن جبير: "ما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً"^(١٢٦) ويذكر أنه عين له قيماً وضع لديه خزائن العقاقير. ويقول إنه وضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة، وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية، ويذكر أن المارستان قسماً خاصاً بالمرضى في النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم، وقسماً خاصاً بالمجانين على مقاصيره شبابيك الحديد. ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستاناً آخر في مثل ذلك الرسم بعينه. وطبيعي أن يحتاج المارستانا إلى كثير من الأطباء. ولا بد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعاً كان دائماً مدرسة للطب. كما كان مستشفى. بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثاً كما أسلفنا. وأول من يلقانا منهم الشيخ الشديد^(١٢٧) أبو المنصور عبد الله الذي خدم الخلفاء الفاطميين ثم لاح الدين وطالبت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيساً على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته. وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن^(١٢٨) جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان

(١٢٦) رحلة ابن جبير ص ٥١.

(١٢٧) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٢ حسن المحاضرة ١/ ٥٤٠.

(١٢٨) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أي أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميل ص ٣٢٠ وما بعدها ص ٥٦٦.

من المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحل طيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١. وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده مثل أبى^(١٢٩) البركات بن القضاعي المتوفى سنة ٥٩٨ وجمال^(١٣٠) الدين ابن أبى الحوافر القيسي وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل. وكان ابنه فتح^(١٣١) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون، ويقول الدوميلي إنه ألف كتابا يحتوى على ١٥ فصلا في علم الرمد. وتكلم ففي أحد الفصول عن عملية الكتاركت. وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وولى أحيانا رئاسة الأطباء. ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس^(١٣٢) الدين الزبير المتوفى سنة ٦٣٢٦ ويقول ابن أبى أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ومتميزون في علمها وعملها.

ويستمر ابن أبى أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين. ويختتم تراجعهم بترجمة لابن^(١٣٣) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات، وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين، وهو بحق إمام النباتين لزمته، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس

(١٢٩) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٢.

(١٣٠) نفس المصدر ص ٥٨٤.

(١٣١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ وألدوميلي ص ٣٢٢، ٣٢٦.

(١٣٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٦.

(١٣٣) انظر في ابن أبى أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ وألدوميلي ص ٤١٤ وما بعدها.

غيره من النباتيين. وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث، وله كتابان: كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء مثل ثلاثمائة لا يتناولها صيدلي قبله، وليس في نفس الموضوع كتاب ثان هو المغنى في الأدوية المفردة، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب. وإذا كانت مصر أتاحَت ابن البيطار المالقي الأندلسي بجوها العلمي الخصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فإنها أتاحَت لأحمد بن يوسف التيفاشي المغربي المتوفى سنة ٦٥١ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجري، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا، ويعود إلى بلده، ولا يلبث أن يعود على مصر ويتولى بها القضاء، وقد بدأ مكرّا بدراسة التاريخ الطبيعي وأختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب، ويؤلف كتابه "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" وفيه يتناول خمسة وعشرين حجر في خمس وعشرين فصلا^(١٣٤). ويسوف في كل حجر كالماس والياقوت مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق، ويتحدث عن معدنه وتكوينه وخواصه ومنافعه، مما قد يدخل في المعارف الطبية، ويتصل بهذه المعارف كتابه "المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة". ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور^(١٣٥) بن بكرة الذهبي الكامل وكتابه "كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية" وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيتها

(١٣٤) نشر كتابه طأزهار الأفكار" في القاهرة الدكتوران محمد يوسف ومحمود بسيوني خفاجي بالهيئة الصرية العامة للكتاب، وراجع فيه مقدمتهما وما بها من مراجع.

(١٣٥) انظر فيه ألدوميلي ص ٣٠٨، ٣١٠.

وطرق استعمالها في سك النقود، ويتناول دار سك النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين.

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك، ويظل ينزلها العلماء من الشرق والغرب، وتظل تعنى بالفلسفة^(١٣٦) ويذكر السيوطي حشداً^(١٣٧) من متفلسفتها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهاني المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارناباري المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبي الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين علي بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجي محي الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩.

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبوعات والرياضيات، وممن أهتم بالتاريخ الطبيعي بيلك الق بيجي الذي صنف حوالي سنة ٦٨٠ كتابه "كنز التجار في معرفة الأحجار" ويقول الدوميلي: "لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحاً لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها^(١٣٨)"، ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك، ربما إلى القرن السادس الهجري المقابل للثاني عشر الميلادي، بل ربما على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي المقابل للقرن الخامس الهجري. والمهم أن مصر هي التي سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك. وأكبر

(١٣٦) راجع البحر المحيط لأبي حيان ١٤٨/٥ - ١٥٠ في تفسير سورة يونس آية ٢٧.

(١٣٧) انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٣٩ وما بعدها.

(١٣٨) الدوميلي ص ٣١٤ وما بعدها.

الظن أنها هي التي أعدت لصنعها، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحة في البحرين المتوسط والأحمر من قديم. وكان ملاحوها في عصر المماليك يغدون ويروحون في البحرين للتجارة والغزو أحياناً على نحو ما هو معروف عن تجارتهم مع مواني إيطاليا وغزوهم لقبرص وطهرهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك. على كل حال يرمز اكتشاف مصر للبوصلة إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية. ويلقانا بها محمد^(١٣٩) بن موسى الدميّري المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها "حياة الحيوان الكبرى" معجم للحيوان مرتب أبجدياً حسب أسماؤه وأنواعه، ومع كل حيوان خصائصه العملية والطبية وطُرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية.

وارتقى حينئذ فن المعمار وما يتبعه من الهندسة رقياً بعيداً، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المماليك منذ الظاهر بيبرس، وفي مبانيه يقول أن تغرى بردى: "بنى في أيامه بالديار المصرية ما لم يبن في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدول والمساجد والحمامات"^(١٤٠). وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثرّون في الأبنية الرائعة، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لا نزال نرى آثارها في مساجدهم الباقية. وينوه

(١٣٩) راجع في الدميّري حسن المحاضرة ١/٤٣٩ والضوء اللامع.. رقم ٢٠٤ وشذرات الذهب ٧/٧٩

والبدر الطالع ٢/٢٧٢ وألدوميلي ص ٥٠٧ ودائرة المعارف الإسلامية.

(١٤٠) النجوز الزاهرة ٧/١٩٦.

السخاوي بمهندس مصري بارع لعهد السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ) هو شمس الدين الطولوني، ويقول: "كان المعول عليه وعلى أبيه في العمار السلطانية"^(١٤١) وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك، ويشهر منهم رياضي كبير هو شهاب الدين أحمد بن حد بن الهائم^(١٤٢) الفرضي من علماء القرن التاسع الهجري، وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسمى المطالب، كان واسع الانتشار. وفي دار الكتاب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية.

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك في دراسة الطب والتأليف فيه، وكان مارستان القاهرة الذي أنشأ صلاح الدين ^{يعد} أكبر معهد لتدريس الطب، وقد تخرج فيه كثيرون مثل ابن أبي أصيبعة^(١٤٣) المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل على ترجمة نحو أربعمئة طبيب عربي، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا ملتفتين بالظاهر يببرس مثل شهاب^(١٤٤) الدين بن فتح الدين القيسي ورشيد^(١٤٥) الدين أبي حليقة النصراني. ولا يلبث أن يلي لا السلطنة بعد يببرس المنصور قلاوون

(١٤١) الضوء اللامع ١/ ٢٢١.

(١٤٢) انظر ابن الهائم في الذرات ٧/ ١٠٩ والضوء اللامع ٢ رقم ٤٤٩ والدوميل ٥٠٦، ٥١٣ وبروكلمان (الطبعة الألمانية) ٢/ ١٢٥.

(١٤٣) راع ابن أبي أصيبعة في النجوز الزاهرة ٧/ ٢٢٩ والشذرات ٥/ ٣٢٧ وأيضاً الدوميل (انظر الفهرس) ودائرة المعارف الإسلامية.

(١٤٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥.

(١٤٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٠.

(٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بیمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى: "وهذا بیمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا"^(١٤٦) وقد جعله أقساما كبيرة: قسما للمرضى بالحميات، وقسما للرمم ومرضاه، وقسما للجرحى، وقسما لمن به إسهال، وجعل فيه قسما للنساء، وأمكنة للأدوية وتركيبها، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى، أمدّها بكل ما تحتاج إليه من فرش. وأهم منذ لك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه، كي يلتقى فيه دروسه على طلاب الطب^(١٤٧) وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال: "أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر". ويذكر أن مجباه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم^(١٤٨).

وتلقانا في عهد قلاوون بان كلية الطب التي كانت ملحقة بیمارستانه كما ذكرنا مدرسة لطب سميت المدرسة^(١٤٩) المهدية نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره في عهد بيبرس، وكان قد خدمه مع أبيه واسلم في أيامه وسمي محمدان ويقول ابن أبى أصيبعة: مولده سنة ٦٢٠ وأنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية

(١٤٦) النجوز الزاهرة ٣٢٧/٧.

(١٤٧) راجع في هذا المارستان خطط المقرئى ٣/٣٨٦ وما بعدها.

(١٤٨) راحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية) ١/٢٠.

(١٤٩) خطط المقرئى ٣/٣٧١.

وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية^(١٥٠). وبلغ من ازدهار دراسة الطب حينئذ أنه كان يدرس في المساجد الجامعة، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦-٦٩٧هـ) يعمل جامع ابن طولون؛ ويرتب فيه دروساً- كما مر بنا- للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوي، وبجانب ذلك يرتب فيه درسا للطب^(١٥١). ومن درسوا فيه بعد زمنه في القرن الثامن الطيب شمس^(١٥٢) الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصري المتوفى سنة ٧٧٦.

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمنه علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس^(١٥٣) العلامة في فنه الذي لم يكن في زمنه من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم، كما يقول ابن تغري بردي، ويكفيه فخراً ما ذكره الدوميلي وغيره من الغربيين من أنه أكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمنه اكتشافه. ومن كتبه (الشامل في الطب" و"المهذب في الكحل" وشرح القانون في الطب لابن سينا. وق توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه. وولى رئاسة الأطباء بعده مهذب الدين بن

(١٥٠) ابن أبي أصيبعة ص ٥٩٨.

(١٥١) خطط المقرئ ١٤٨/٣.

(١٥٢) حسن المحاضرة ١/٥٤٦.

(١٥٣) انظر في ابن النفيس النجوز الزاهرة ٧/٣٧٧ والسبكي ٨/٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/٥٤٢ والذرات ٥/٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/٢٣٤ وروضات الجنات ٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/١٣١ والدوميلي ص ٣٢٣، ٣٢٦ وكتاب بول غليونجي عنه.

أبى حليقة المار ذكره، ويسرد السيوطي في حسن^(١٥٤) المحاضرة أسماء طائفة من الأطباء في القرن الثامن الهجري. ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد^(١٥٥) بن الأكفاني المتوفى سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون، ومن مصنفاته في الرمد "كشف الغين في أحوال العين" وله كتاب في الطب المنزلي سماه "غنية اللبيب" وكتاب في الفصد سماه "نهاية القصد" وكتاب في الأحجار النفيسة سماه "نخب الذخائر" ومن كتبه: "إرشاد القاصد إلى أقصى المقاصد" وهو مختصرة جامع لفنون شتى تبلغ ستين فنا نشره شبرنجر في المكتبة الهندية. واشتهر بعده في طب العيون صدقه^(١٥٦) بن إبراهيم الشاذلي، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء النصف الثاني من القرن الثامن الهجري المقابل للقرن الرابع عشر الميلادي. ومما يدل على شهرة مصر لأيام المماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان بايزيد العثماني أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان بروق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج^(١٥٧)ه ويظل هذا النشاط الطبي في مصر حتى نهاية زمن المماليك إذ نلتقي في زمن قانصوه الغوري (٩٠٦-٩٢١هـ) بالطبيب محمد القوصي، وإليه قدم كتابه "كمال الفرحة في دفع السموم وحفظ الصحة" ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية.

(١٥٤) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٣ وما بعدها.

(١٥٥) البدر الطالع للشوكاتي ٧٩/ ٢ وأنظر الدوميلي ص ٥٠٥، ٥١٠.

(١٥٦) الدوميلي ص ٥١٠.

(١٥٧) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة.

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداداة الخيل قديمة، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام المماليك أن يعنى بعض أطبائها بالطب البيطري، ومن خير ما ألف فيه كتاب لطبيب بيطري كان المشرف على خيل السلطان الناصر محمد بن قلاوون، هو أبو بكر^(١٥٨) بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب "كامل الصناعتين: الزردقة والبيطرة" والزردقة دراسة الخيل والبيطرة: علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون، وترجمه إلى الألمانية حديثاً فرونر. ولأيدمر^(١٥٩) الجلدكي المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها، المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة.

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائرة في زمن العثمانيين. ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس. وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزي المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المنوفي الفلكي بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطي المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسي الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠. ويسوق الجبرتي في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين

(١٥٨) ألدومبيلي ص ٥٠٥.

(١٥٩) ألدومبيلي ص ٥٠٦، ٥١٣.

والفلكيين في القرن الثاني عشر الهجري ويذكر في طليعتهم رضوان^(١٦١) الفلكي المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضواني، ويقول الجبرتي إنه حرره على أصول الرصد السمرقندي وزيجة المشهور الذي صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٧م. وبنوه الجبرتي بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن أفندي قطة. فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التي كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكي. ويشيد الجبرتي بأبيه في الرياضيات والفلك، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف^(١٦٢) الكلارجي المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به، ويذكر أنه ألف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاو والأسطحة، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه "كنز الدرر في أحوال منازل القمر".

وينوه طويلا بحسين^(١٦٣) المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة الحساب ومصنفاته، كما ينوه بتلميذه محمد^(١٦٤) بن موسى الجناحي المتوفى سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٦ من ومؤلفاته في الرياضيات. ويذكر الجبرتي في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين. ويبدو أن الجبرتي وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادي عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء. إلا ما قد يذكرونه عفوا مثل شهاب

(١٦٠) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١ / ٧٤.

(١٦١) الجبرتي ٢ / ٧٠.

(١٦٢) الجبرتي ١ / ١٦٤.

(١٦٣) الجبرتي ١ / ٢١٩.

(١٦٤) الجبرتي ٢ / ١٢٥.

الدين به سلامة^(١٦٥) القليوبي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكي^(١٦٦) داوين بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨. ومن يقرأ الجبرتي وتراجمه في القرن الثاني عشر الهجري يراه يذكر طبيياً يسمى قاسم^(١٦٧) بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثماني، وليس ذلك فحسب، فإن الجبرتي يذكر أنه عهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصوري، ومعنى ذلك أن مارستان المنصور قلاوون الذي مر بنا ذاكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائماً طال أيام العثمانيين، وظل قائماً معه تدريس الطب لطلابه فيه، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المهالك.

(ب) علم الجغرافيا :

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين. ولعل أول ما يلقانا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والجزيرة والإسكندرية. ولمعاصره محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط^(١٦٨) سقط من يد الزمن. ونزل مصر وأستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودي على بن

(١٦٥) خلاصة الأثر ١/ ١٧٥.

(١٦٦) أنظر مصادر ترجمة داود الأنطاكي في قسم الشام ص ٥٦٠.

(١٦٧) الجبرتي ٢/ ٥٤.

(١٦٨) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكى ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباته التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم الاجتماعية. وفي مصر أو بعبارة أدق في الفسطاط نقح كتابه "مروج الذهب" سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة. وفي الفسطاط ألف كتابه "التنبيه والإشراف" وهو ملئ بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات. وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابن سليم^(١٦٩) الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه "أخبار النوبة والمقرّة وعلوة والبجة والنيل" يصف فيه تلك البلاد وسكانها، وينقل عنه المقرئ وابن إياس مرارا، وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل. ويكتب عن السودان بعده فترة قليلة رحالة مصري هو الحسن المهلي في كتابه "المسالك والممالك" الذي أهداه إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزي وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا. وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان^(١٧٠).

والنشر) ١/١٦٨.

(١٦٩) كراتشكوفسكى ١/١٩٢ وبروكلمان ٤/٢٥٣.

(١٧٠) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لأدم ميتز ترجمة د. أبى ريدة ٢/٧-٨.

وتعود مصر في القرن التالي إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعي^(١٧١) كتابه خطط مصر. ويخلفه في القرن السادس الهجري جغرافي مصري كبير هو أبو الفتح نصر^(١٧٢) بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافي له سماه "ما ائتلف واختلف من أسماء البقاع" وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه "كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار" ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني تضم ٢٩٣٨ اسما ولاحظ وستنفلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب^(١٧٣). وينزل مصر في أواخر القرن السادس الهجري عبد^(١٧٤) اللطيف البغدادي ويعنى بتأليف كتيب عنها يسميه: "الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر". والكتيب موزع على مقاتلين تحدث مؤلفه في أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها، وفي الثانية تحدث عن النيل وعمما أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين.

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجري ويتكاثرون في القرن الثامن، وفيه نلتقي بابن^(١٧٥) المتوج محمد بن عبد الوهاب الزيري المتوفى سنة ٧٣٠

(١٧١) كراتشكوفسكى ١٦٩/١ وابن خلكان ٢١٢/٤.

(١٧٢) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وخريدة القصر للعماد الأصبهاني (قسم مصر) ٢٢٥/٢ وبغية الوعاء للسيوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ٣٢٢/١.

(١٧٣) انظر كراتشكوفسكى ٣٢٣/١ ومقدمة وستنفلد للجزء الخامس من معجم البلدان.

(١٧٤) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ٣٤٥/١.

(١٧٥) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن المحاضرة للسيوطى ٥٥٥/١

وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضعة وعشرين وسبعائة. وكان في زمنه النويري^(١٧٦) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى: "نهاية الأرب" التي مر ذكرها في الحركة العلمية والتي أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون، وهي مقسمة إلى خمسة فنون، والفن الأول عن السماء والأرض، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعي وبلدانها وسكانها. وكان يعاصره ابن فضل^(١٧٧) الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضاً موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها "سالك الأبصار" وفيها عرض جغرافي عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق. وتهتم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكات أو بعارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضي المصرية، ومن أهمها الروك^(١٧٨) الناصري سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون. ويظل النشاط الجغرافي بمصر في القرن التاسع الهجري، ونلتقي في أوائله بابن دقماق^(١٧٩) وإلى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعني بخطط مصر في كتابه "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" وتحتفظ دار الكتب المصرية منه بالجزئين الرابع والخامس وفيهما يصور خطط القاهرة والإسكندرية. ويعنى معاصره

وكراتشكوفسكى ٣٨٥ / ١.

(١٧٦) ابن حجر ٢٠٩ / ١ والسيوطى ٥٥٦ / ١ والخطط الجديدة لعلى مبارك ١٥ / ١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨ / ١.

(١٧٧) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالفصل الخامس.

(١٧٨) كراتشكوفسكى ٣٨٥ / ١.

(١٧٩) الشذرات ٨٠ / ٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١ / ٢ ودائرة المعارف الإسلامية.

القلقشندي^(١٨٠) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافي متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحبشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية.

ولا نلبث أن نلتقي بالمقريزي^(١٨١) تقي الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها وتاريخها وحاضرتها وأثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآت وأعيادها وأحوالها الاجتماعية. ويعنى خليل^(١٨٢) بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه "زيادة المالك في كشف الطرق والمسالك" برسم الجغرافية الإدارية لأراضي دولة المماليك في مصر والشام. ويختتم القرن التاسع الهجري بابن الجيعان^(١٨٣) المتوفى ٩٠٢ وله "التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية" ووصف لرحلة السلطان قايتباي في سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه "القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف". وينتهي الجغرافيون في العهد المملوكي بابن^(١٨٤) إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠ وله كتاب "نشق الأزهار في عجائب الأقطار" ولا يزال غير مطبوع، وفيه يتحدث عن

(١٨٠) انظر مراجع القلقشندي في ترجمته بالفصل الخامس.

(١٨١) الضوء اللامع للسخاوي ج ٢ رقم ٦٦ والمنهل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب المصرية)

٣٩٤/١ والسيوطي ٥٥٧/١ والشوكاني ٧٩/١ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣.

(١٨٢) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ زيادة ص ٢٣. وكراتشكوفسكي ٤٧٢/٢.

(١٨٣) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكي ٤٧٥/٢.

(١٨٤) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكي ٤٩٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية.

الجغرافية الفلكية والطبيعية لمصر والعالم، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر السنين.

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافي بمصر في عهد العثمانيين، غدت تحولت ولاية تابعة لهم، ولم يعد أبنائها يشعرون بمكانتهم التي كانت لهم زمن المماليك، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد العربية بالطاعة وفي مقدمته الشام والحجاز. ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط، بل تظل منه بقايا إذ نجد ابن^(١٨٥) زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف في الجغرافيا كتابا اسماء "تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من العجائب" ولا يزال مخطوطا لم ينشر. ونلتقي في القرن الحادي عشر بالسنيهوري^(١٨٦) محمد بن أحمد وله كتاب في منازل البريد بين القاهرة ومكة. وكان يعاصره شهاب الدين القليوبي المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافي في مناسك الحج ومنازله ورسالة في معرفة أسماء البلاد: أطوالها وانحرافاتهما، تبدو الرسالة كأنها زيغ صغير، وهى بذلك تدخل في الجغرافية الفلكية، كما يدخل النشاط في الفلك والهيئة الذي عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكي والرياضي الكبير رضوان وأمثلة من الفلكيين. وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل بالزيجات، ونشطت معها كتب الرحلات، ومن أهمها رحلة لمصطفى^(١٨٧) أسعد اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانها: "موانح الأنس برحلتني لوادي القدس" وقد استغرقت الرحلة ستة أشهر في سنة

(١٨٥) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢.

(١٨٦) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢.

(١٨٧) انظر فيه تاريخ الجبرتي ١/٢٢١-٢٤٢ وراجع كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢.

١١٤٩ بدأها من موطنه دميّاط إلى القدس، وعنى باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبى اليمن مجير الدين الحنبلي، وسمي مختصره "لطائف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل". وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني بجغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز.

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد :

أخذت مصر تعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بهما. مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدين، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة، فكانت تلقن الشباب في الفسطاط والإسكندرية مبادئ العربية، وأنضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هجروا إلى الديار المصرية مثل عبد^(١٨٨) الرحمن بن هرمز الأعرج تلميذ أي الأسود الدؤلي. نزيل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة. وطبيعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدين مطردًا طوال القرن الثاني للهجرة، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم ضبط ألفاظه لغويا ونحويا. ومدارسهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه، وسنرى فيما بعد نشاطهم الجهم في هذه الميادين. ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدين وإحصائهم، ولكن لا شك في أنهم كانوا كثيرين. وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل الفسطاط سنة ١١٩ وكان عالما بالغلة ولم يكن أحد بالفسطاط يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر، وإنه كان يعجب بمعارفه، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه: نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من

(١٨٨) راجع ابن هرمز في أخبار النحويين البصريين للسرافي ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١ / ١ وطبقات القراء لابن الجزري ٤ / ٣٨١ وانباه الرواة ٢ / ١٧٢ وما به من مراجع.

الإمام الشافعي. ومن كان يجتمع به الشافعي في الفسطاط من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماماً في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيراً من أشعار العرب^(١٨٩). ويزور محمد بن يحيى اليزيدي مصر في العقد الثاني من القرن الثالث في صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذ دار مقام له حتى وفاته^(١٩٠) ويحدث بها ضراً من الشراء في حياتها اللغوية إذا كان لغوياً كبيراً مثل أبيه وأخيره إبراهيم، وله كتاب المقصور والممدود، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه: "النوادر في اللغة" وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم في اللغة الذي سماه "ما أتفق لفظه وأفترق معناه" جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة في المعنى، وهو من الكتب اللغوية الجيدة. ويزور مصر ابن جرير الطبري في العقد السادس من القرن الثالث، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه، فرواه لهم مفسراً غريبة^(١٩١). ونلتقي في الفسطاط لأواسط القرن الثالث بعالم مصري لغوي ونحوي كبير هو ولاد^(١٩٢) التميمي المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم، ويقال إنه لم يكن بمصر شيء كبير من كتب اللغة والنحو قبله، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة. مما يدل على

(١٨٩) له كتاب سماه "ما وقع في أشعار السير من الغريب" وانظر مصادر ترمته في مر ١٥١.

(١٩٠) أنظر انباه الرواة ٣/٢٣٦ وتاريخ بغداد ٣/٤١٢.

(١٩١) معجم الأدباء لياقوت ١٨/٥٣.

(١٩٢) انظر ترجمة ولاد في إنباه الرواة ٣/٣٥٤.

عنايته برواية دواوين الشعر القديم، وخاصة الدواوين التي تكتظ بالغريب مثل ديوان رؤبة. وملتقى بعده بلغوي مصري معجمي أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على^(١٩٣) بن الحسن الهنائي الأزدي المعروف باسم كراع النمل لقصره ودمايته، وهو وإن كان دمية قصيرا فقد كان عالما لغويا لا يشق غباره، ألف أربعة معاجم، ويقول القفطي في ترجمته بإنباه الرواة إنه يملكها جميعا، وهي المنضد في اللغة، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية، ومعجم مختصر له سماه المجرد، جرده من الشواهد، ومعجم ثالث لأمثلة الغريب على أوزان الأفعال سماه الأوزان. والمعاجم الثلاثة مفقودة. أما المعجم الرابع فسماه المنجد، قصره على ما أتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظي، وهو معجم نفيس، وقد نشر في القاهرة. والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية والرباعية كما هو معروف في المعجم العربية، بل ترتب حسب صورها اللفظية. وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهري في معجمه تهذيب اللغة - في ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزمخشري في أساس البلاغة، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزمخشري أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كراع النمل.

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتزمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عن أبي العباس أحمد^(١٩٤) بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبى

(١٩٣) راجع ترجمة الهنائي في إنباه الرواة ٢/ ٢٤٠ ومعجم الأدباء ١٣/ ١٢.

(١٩٤) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٤/ ٢٠١ وإنباه الرواة ١/ ٩٩ وما به من مراجع.

جعفر أحمد^(١٩٥) بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨. أما ابن ولاد فقد خرجه أبوه محمد نحوياً ولغويًا ماهراً، ولم يكتفِ بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين مصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلوا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون. وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه: ديوان رؤبة رواية لي عن أبي عن جدي. ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذي الرمة، وسنرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته، وبذلك كان يدس لطلابه في الفسطاط أصعب ديوانين عربيين لغويًا، واشتهر في زمنه روايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس المشهور. ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والممدود، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكراع النمل، وكأنه تابعه في ترتيب معجم تيسيراً للانتفاع به. أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماً كثيراً، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم، إذ فسّر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه. ومن أهم مصنفاته اللغوية "شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع، وهى منشورة ببغداد، ونُشر له كتاب "شرح أبيات سيبويه": وهى أبيات كتابه المشهور.

(١٩٥) راجع في ترجمة ابن جعفر النحاس إنباه الرواة ١/ ١٠١ ومعجم الأدباء ٤/ ٢٢٤ وابن خلكان

وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية، ونشعر بهذا النشاط واضحاً حين نزلها المتنبي، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعرهن وسرعان ما تكونت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره. مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجوع وفيه يقول الثعالبي: "أحد رواة المتنبي الأدباء وأصحابه العلماء ومن تمهر في لغات العرب"^(١٩٦) ومثل صالح بن رُشدي، وفيه يقول الثعالبي أيضاً: "أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب، صاحب المتنبي وروى شعره"^(١٩٧). وكانت تدور المناقشات أحياناً بين المتنبي وبعض اللغويين، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والممدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلق عليها موضحاً ما به من الغلط، وكتب ذلك عنه أبو الحسين علي^(١٩٨) بن أحمد المهلبى اللغوي المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه، وعلى نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصري في كتابه "الرد على ما في المقصود والممدود لابن ولاد".

ويقول ياقوت في ترجمة المهلبى إنه كان إماماً في النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ إبراهيم النجيري كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان راوية كبيراً للدواوين والأشعار، وحملها عن أبو الحسن المهلبى المذكور آنفاً، وتلميذ ثان له يسمى جنادة^(١٩٩) اللغوي، وسرى عما قيل أنه كان الطريق إلى إحدى

(١٩٦) اليتيمة ١/ ٣٩٥.

(١٩٧) اليتيمة ١/ ٣٩٩ وأخبار مصر في سنتي ٤١٤، ٤١٥ للمسبحى (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦.

(١٩٨) انظر في أبي الحسين المهلبى معجم الأدباء ١٢/ ٢٢٤ وإنباه الرواة ٢/ ٢٣٢.

(١٩٩) انظر ترجمة جنادة في معجم الأدباء ٧/ ٢٠٩ وكان تلميذاً للأزهري صاحب معجم التهذيب وروى

روايات ديوان ذي الرمة، ولعل في ذلك ما يدل على انه شارك بقوة في رواية الدواوين القديمة، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى، وفي المهلبى يقول القفطى: أحد علماء الأدب واللغة والشعر، روى عنه المصريون وأكثروا.. والرواية عنه إلى زماننا هذا (أي في القرن السابع الهجري) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب. وحوالي منتصف القرن الخامس الهجري نزل بمصر التبريزي^(٢٠٠) تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشروحه على الدواوين والأشعار، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبى تمام، وقد مرّ بنا في الجزء الخامس من هذه السلطة نشاطه اللغوي الجم. ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيرواني المتوفى سنة ٤١٢ خدّم المعز الفاطمي وابنه العزيز وصنف لهما كتبا، وعاد بعد خلافتها إلى بلده، ومن تصانيفه كتاب الجامع في اللغة رتبته على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري، ولعله كتاب الضاد والطاء وكتاب معان في شعر المتنبي وكتاب في المآخذ عليه.

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس يوسف النجيرمي المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان

عن أبى أحمد العسكري كتبه، ونزل مصر، أقام بها حتى توفي سنة ٣٩٩.

(٢٠٠) انظر في نزول التبريزي مصر ابن خلكان ٦/ ١٩٣.

(٢٠١) راجع في ترجمة يوسف النجيرمي ابن خلكان ٧/ ٧٥ وبغية الوعاء والأنساب للمسعاني في

النجيرمي والشذرات ٣/ ٧٥ وغير الذهبي ٢/ ٣٥٨.

يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان يمتاز به من الدقة في الضبط اللغوي غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن، وفي ذلك يقول ابن خلكان: "أكثر ما تُروى الكتب القديمة في اللغة والأشعار العربية وأيام العرب في الديار المصرية من طريقه". وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها في أوثق صورة ممكنة. ومن الخير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذي الرمة الذي نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح في مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة أعتمد فيها على صنعته فيه، إذ أخرجه في صورة محكمة على أساس روايتين علميتين، ولكل رواية طريقان. أما الرواية الأولى فعن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين علي بن أحمد المهلبى أستاذة عن ابن ولاد، وطريقها الثاني جعفر^(٢٠٢) بن شاذان اللغوي البصري نزيل القاهرة عن أبى عمر الزاهد علام ثعلب. والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضَبْعان عن ذي الرمة، وطريقها الأول أبو الحسين علي بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيري. ولعل في ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيري بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنعتها إحصاءاً لا يكاد يفوقه إحصاء، وكان يعمم هذا الإحكام في كل ما رواه من الدواوين وكتب اللغة.

ويحمل أصحاب يوسف النجيري عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء. ويخالفهم عليها تلاميذهم في القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس، ويطردها النشاط اللغوي بمصر. ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها، وفي

(٢٠٢) انظر في ترجمة جعفر بن شاذان إنباه الرواة ١ / ٢٦٥.

مقدمتهم على^(٢٠٣) بن جعفر السعدي الصقلي المعروف باسم ابن القطاع، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البر اللغوي، ورحل عن صقلية لما اشرف النورمان على تملكها في حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة واتخذها دار مقام له وتصدر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذوه الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلما لوالده، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري، كان قد أخذها عن أساتذة ابن البر في صقلية، وله عدة تصانيف لغوية، منها كتاب الأسماء في اللغة، وكتاب الأفعال عنى بنشره مجمع اللغة العربية في القاهرة ويتكاثر اللغويون من علمائها والعلماء النازلين بها بعد القطاع، وأشهرهم غير مدافع ابن برى^(٢٠٤) عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان: الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره". ويذكر ابن خلكان أنه رأى له "حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص" للحريري، وأن له كتابا لطيفا في أغاليط الفقهاء. وقد كتب ردا على أبي محمد بن الخشاب، ردّ فيه على كتابه الذي عدد فيه غلط الحريري في المقامات، وطبع هذا الرد ملحقا بمقامات الحريري مع نقد ابن الخشاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة. ومن أهم مصنفات حواش على معجم الصحاح للجوهري سماها

(٢٠٣) انظر في ابن القطاع معجم الأدباء ١٢/ ٢٧٩ وابن خلكان ٣/ ٣٢٢ وإنباه الرواة ٢/ ٢٣٦ وما به من مراجع.

(٢٠٤) راجع في ابن برى معجم الأدباء ١٢/ ٥٦ وابن خلكان ٣/ ١٠٨ وإنباه الرواة ٢/ ١١٠ وشذرات الذهب ٤/ ٢٧٣ وبغية الوعاء ص ٢٧٨.

"التنبية والإفصاح عما وقت في كتاب الصحاح" يقول ان خلكان: "وهي حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم إطلاعه" وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان. وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش، وقد نُشر هذا القسم منه في جزئين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب. ولا بن برى أيضاً حواش على كتاب المعرب من الكلام الأعجمي للجواليقي، ومن آرائه الطريقة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة. وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢. ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان^(٢٠٥) بن بنين الدقيق المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي على الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزاجي، وأهم من هذين الكتابين كتابه: "اتفاق المباني وافتراق المعاني في اللغة" ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية. وله كتب عدة في العروض، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض، والكتاب الوافي في علم القوافي.

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن توج بكتاب لسان العرب لابن^(٢٠٦) منظور المتوفى سنة

(٢٠٥) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١/ ٢٤٤ وفي بغية الوعاء ٢٦١.

(٢٠٦) راجع ابن منظور في نكتب الهيمن ص ٢٧٥ والدرر الكامنة ٥/ ٣١ وحسن المحاضرة ١/ ٥٣٤

٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلدا، وهو أكبر معجم لغوى عربي ظهر في الأزمنة الماضية، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة، وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وحواشي الصحاح لابن برى والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير، وهو معجم تنوع به الجماعة أولوا القوة، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني.

ويظل لمصر نشاط لغوى غزير بعد ابن منظور، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المئونة في ذلك فحسبها معجمه، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهي الكبير للرافعي صنفه أحمد^(٢٠٧) بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفاتها مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية.

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن^(٢٠٨) السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفها وتصنيفها في جميع الميادين الإسلامية واللغوية، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه

والبغية ص ١٠٦ وقوات الوفيات ٥٢٤ / ٢ والوفاء ٥٤ / ٥ والشذرات ٢٦ / ٦.

(٢٠٧) انظر الفيومي في الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار الكتب الحديثة) ١ / ٣٣٤.

(٢٠٨) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص ٤٥٥.

"المزهر في علوم اللغة وأنواعها" وهو مطبوع مراراً بالقاهرة، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والمعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والإتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة. وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضيف ومنكر ومتروك ومطرود وشاذ. ويتحدث عن ثقب روائته ومن تردّد، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المتحل المصنوع في اللغة، أشهر من نحل الشعر وأفسده. والكتاب فريد في بابه ومباحثه. ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم، ومن خير من يمثلهم شهاب^(٢٠٩) الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه "شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل" وقد صدره بمقدمة تحت فيها عن التعريب وشروطه، وله شرح على درة الغوا في أوهام الخاص للحريري. وتظل مصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاعل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة، وينزلها كثيرون من علماء الديار العربية، ومن نزلها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ حتى إلى نداء ربه، وأكرمه المصريون وعلماءؤها، وعكف منذ نزلوه على شرح القاموس المحيط للفيروزبادي. وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشرات

(٢٠٩) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩.

مجلدات، وقد سماه باسم "تاج العروس". وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمهن وفي الجبرتي تقریظا كثيرة للمصريين فيه. وكأنه أتیح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية: اللسان في زمن الممالیک وتاج العروس في زمن العثمانيين، كما أتیح لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهرة للسيوطی.

ومر بنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدین أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نحاتها من أبنائها ونزلائها في مقدمتهم ولاد التمیمي الذي مر ذكره في اللغويين، وكان نحویا كبيرا كما كان لغویا كبيرا، وكان يعاصره أحمد^(٢١٠) بن جعفر الدينوري نزیل الفسطاط المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيوبه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه المهذب، وعنه حمله المصريون. ويلقانا في زمنه محمد^(٢١١) بن ولاد آنف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨ وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيوبه وعادل إلى الفسطاط يدرس النحو، وصنف لطلابه كتابا سماه المنطق. ونزل الفسطاط في سنة ٢٨٧ الأخفش^(٢١٢) الصغير على بن سليمان، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة، يعلم الطلاب النحو واللغة، وله شرح على كتاب سيوبه، لعله أملاه بمصر. ونمضي في

(٢١٠) انظر الديرونی في معجم الأدباء ٢/٢٣٩ وإنباه الرواة ١/٣٣ وما به من مراجع.

(٢١١) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/٣٣٢ ومعجم الأدباء ١٩/١٠٥ وإنباه الرواة ٣/٢٢٤ وما به من مراجع.

(٢١٢) انظر الأخفش الصغير في تاريخ بغداد ١٢/٤٣٣ وابن خلكان ٣/٣٠١ ومعجم الأدباء ١٣/٤٦١ وإنباه الرواة ٢/٢٧٦.

القرن الرابع الهجري فليقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره، وكان نحويًا كبيراً كما كان لغويًا كبيراً وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه في كتابه الذي سماه "مسائل الغلط". وله آراء^(٢١٣) نحوية طريقة. وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير، وكأنه يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهادية جدية مما يجعله بحق طليعة^(٢١٤) المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير "التفاحة في النحو" وكتابه الكبير الرائع النفيس: "إعراب القرآن". ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليهما كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما، ومر بنا أن منذرين سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد، فمصر هي التي أذاعته في الأندلس والمغرب. وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه^(٢١٥) لطلابه بقرطبة، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه.

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحوفي^(٢١٦) على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإقراء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول. وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون، وله في

(٢١٣) انظر كتابنا المدارس النحوى ص ٣٣٠.

(٢١٤) المدارس النحوية ص ٣٣٢.

(٢١٥) إنباه الرواة ٣/ ٢٣٠.

(٢١٦) انظر الحوفي في الأنساب للسمعاني الورقة ١٨١ ومعجم الأدباء ١٢/ ٢٢١ وابن خلكان ٣/ ٣٠٠ وإنباه الرواة ٢/ ٢١٩ والذرات ٣/ ٢٣٤.

إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات، ويبدو ما نقله عنه ان هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادى^(٢١٧) النزعة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول النفوذ إلى بعض آراء جديدة. وكان يعاصره الذاكرة^(٢١٨) النحوي المصري تلميذ ابن جنى المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدر لإقراء العربية، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أساتذة ابن جنى فأخذوا يدرسونها مبكرين. وأنجبت مصر حينئذ نحويًا كبيراً هو ابن بابشاذ^(٢١٩) طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجامعة عمرو بن العاص في الفسطاط. وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتاب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس، منها المقدمة في النحو وشرحها، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة. ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو البغدادي، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلداً. وكان ينزع منزع البغداديين^(٢٢٠) الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الأداء بآراء

(٢١٧) المدارس النحوية ص ٣٣٤.

(٢١٨) إنباه الرواة ٨/٢.

(٢١٩) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٢ وأنباه الرواة ٩٥/٢ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشذرات

٣/٣٣٣ ومرية الجنان ٩٨/٣ والبغية ص ٢٤.

(٢٢٠) المدارس النحوية ص ٣٣٦.

جديدة. وخلفه على التصدر لإقراء النحو تلميذه محمد^(٢٢١) بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إلهي التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي.

وأكبر نحاه مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برى الذي أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجامع عمرو، وطارت شهرته في الآفاق، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقدمتهم عيسى الجزولي نحويّ المغرب والأندلس؛ وقد وُن عنه في أثناء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقدمته المعروفة بالجزولية، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه، واهتم بها النحاة وشرحوها مراراً، وهو بغدادى^(٢٢٢) النزعة في النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمنه. وخلف ابن برى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين، ومر بنا بين اللغويين وله في النحو شرح سيبويه سماه "لباب الألباب في شرح الكتاب".

ونزل مصر يحيى^(٢٢٣) بن مُعْطَى المغربي الدمشقى المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجامع عمرو لإقراء الطلاب النحو، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو، وكتاب الفصول، وحواش على أصول ابن السراج، وشرح على الجمل. وكان يعاصره ابن الرماح على^(٢٢٤). بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر

(٢٢١) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ١٨ / ٣٩ وإنباه الرواة ٧٨ / ٣ والذرات ٤ / ٦٢ ومريّة الحنان ٣ / ٢٢٥ والبغية ص ٢٤.

(٢٢٢) المدارس النحوية ص ٣٠١، ٣٣٨.

(٢٢٣) انظر ابن معطى في معجم الأدباء ٢٠ / ٣٥ والبغية ١٦ / ٤ والشذرات ٥ / ٢٩ وتاج التراجم ٨٣.

(٢٢٤) راجع ابن الرماح ف البغية ص ٣٤١.

للسيوطي. وملتقى بعلي^(٢٢٥). بن محمد السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣ وله شرحان على كتاب المفصل للزخشري، وأسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر. وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب^(٢٢٦). عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجباً لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته. وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض وله في النحو كتاب المالي، وكتاباه الكافية في النحو والشافية في الصرف طارت شهرتهما في العالم الإسلامي، وتعلق العلماء بدرسهما للطلاب في كل مكان، وكثرت عليهما الحواشي والشروح كثرة مفرطة، ومن أهم شروحيهما شرح الرضى الإسترابادي. وينزع ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية.^(٢٢٧) فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف أيهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه.

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن المماليك، وملتقى في أوائله بأمين الدين المحلي^(٢٢٨). محمد بن علي المتوفى سنة ٦٧٣ تصدر لإقراء النحو وانتفع به الناس، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض. وكان يعاصره بهاء الدين^(٢٢٩). بن النحاس الحلبي

(٢٢٥) أنظر العلم السخاوي في معجم الادباء ١٥/ ٦٥ وبيان خلكان ٣/ ٣٤٠ وإنباه الرواة ٢/ ٣١١

والبغية ص ٤٩ وطبقات القراء ١/ ٥٦٨ والسبكي ٨/ ٢٩٧ وحسن المحاضرة ١/ ٤١٢.

(٢٢٦) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان ٣/ ٢٤٨ وطبقات القراء ١/ ٥٠٨ وطبقات الذهبي

٢/ ٢٠١ والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٥/ ٢٣٤ والبغية ص ٣٢٣ وير وكلمان ٥/ ٣٠٨.

(٢٢٧) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها.

(٢٢٨) حسن المحاضرة ١/ ٥٣٣.

(٢٢٩) بغية الوعاة ص ٦.

الأصلي المتوفى سنة ٦٩٨، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدر لإقرار العربية، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور. وأبو حيان^(٢٣٠). هم أهم تلاميذه، فقد لزمه وأخذ كتبه، وتصدر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضاً له شرح على ألفيته، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أي غسل النحو، ويغلب عليه متابعة البصريين^(٢٣١). ويتصدى كثيراً في مؤلفاته لابن مالك وآرائه. وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمه. ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم^(٢٣٢). الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه نسب إليها. وله شروح على مفصل الزمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته. وخرجت مصر حينئذ أكبر نحاتها ابن هشام^(٢٣٣). جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فج، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيبويه، وله مصنفات نحوية كثيرة

(٢٣٠) انظر أباحيان في الدرر الكامنة لابن حجر ٤/ ٣٠٢ والبغية ص ١٢٦ ونكت الهيمان ص ٢٨٠

وطبقات الشافعية للسبكي ٩/ ٢٧٦ وطبقات القراء ٢/ ٢٨٥ وفوات الوفيات ٢/ ٥٥٥ والشذرات

/ ١٤٥ ونفح الطيب (طبعة دوزي) ١/ ٨٢٣.

(٢٣١) المدارس النحوية ص ٢١ وما بعدها.

(٢٣٢) البغية ص ٢٢٦.

(٢٣٣) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٧/ ٣٠٨ والشذرات ٦/ ١٩١ والبغية ص ٢٩٣ والبدر الطالع

/ ١ ٤٠١ وكتابنا "المدارس النحوية" ص ٣٤٦.

من أهمها "مغنى اللبيب عن كتب الأعراب" وهو ف جزئين: جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل، بث فيه كثيراً القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة. وله كتاب "أوضح المسالك إلى ألفيه ابن مالك" وكتاب "شذور الذهب" وكتاب "قطر الندى" وكل هذه الكتب مطبوعة مراراً وتكراراً. وهو ينهج في النحو منهج المدرسة البغدادية. وكان يعاصره أبْن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية. وهو مشهور. وملتقى في القرن التاسع الهجري بالدماميني^(٢٣٥). الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر، وله حاشية على المغني لابن هشام. وفيها يتحمل عليه تحاملاً شديداً محمد جعل الشُّمْنِيَّ الإسكندرية المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغني، والحاشيتان مطبوعتان معاً. وملتقى بعدهما^(٢٣٦). بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة. ومن أهم النحاة حينئذ الشيخ خالد^(٢٣٧). الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فنسب إليه، وله مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه: "التصريح على التوضيح" لابن هشام. وكان يعاصره السيوطي وكان نحويّاً كبيراً كما كان لغويّاً كبيراً، وله في كليات النحو

(٢٣٤) راجع ابن عقيل إلى الدر الكامنة ٢/ ٣٧٢ والبغية ص ٢٨٤ والشذرات ٦/ ٢٠٤ والبدر الطالع ١/ ٣٨٦ وكتابنا "المدارس النحوية" ص ٣٥٥.

(٢٣٥) انظر الدماميني إلى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٤٤٥ والشذرات والبغية ص ٢٧ والبدر الطالع ٢/ ١٥٠.

(٢٣٦) أنظر الكافيجي إلى الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٥٥ والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٧/ ٣٢٦.

(٢٣٧) راجع الشيخ خالد إلى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٦٦١ وشذرات الذهب ٨/ ٢٦ والكواكب السائرة ١/ ١٨٨ والخطط الجديدين لعل مبارك ١٠/ ٥٣.

كتاب "الأشباه والنظائر" في أربعة مجلدات. وفيه طبق على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه، وهو كتاب نفيس، وقد طبع بحيدر آباد. وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جني كما يقول في مقدمته. وله في النحو التصريف كتاب جمع الهوامع في مجلدين ضخمين ضم فيه خلاصات النحاة وآراءهم. وهو دائرة معارف نحوية وصر فيه بديعة.

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني^(٢٣٨). على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية بن مالك. وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة. ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين. ومن أشهرهم في القرن الحادي عشر الشنواني المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشي المتوفى سنة ١٠٢٥، وينزل القاهرة عبد القادر^(٢٣٩). البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته: "خزانة الأدب" وهي شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية وصدر الإسلام، ونمضي إلى القرن الثاني عشر فيلقانا الحفني المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨ وله حاشية على المغنى. وهي مطبوعة. ولا نلب أن نلتقي بالشيخ

(٢٣٨) أنظر الأشموني في الضوء اللامع ٥/٦ وشذرات الذهب ١٦٥/٨ والبدر الطالع ١/٤٩١ وفيه أنه توفي سنة ٩١٨.

(٢٣٩) أنظر في عبد القادر البغدادي خلاصة الأثر ٢/٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع.

حسن الكفراوي^(٢٤٠). المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور. وملتقى بالصبان^(٢٤١). محمد بن علي المتوفى سنة ١٢٠٦هـ / ١٧٩١م صاحب حاشية المشهورة على شرح الأشموني، وهي أشبه بدائرة معارف نحوية. وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوي بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين.

وإذا تركنا علمي النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد. رأينا مصر تأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها. وأول كتاب بحده يعنى بمباحثات البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٣ سماء المصنف^(٢٤٢). في بيان سرقات المتنبي. وهو بذلك أدخل في مباحث النقد. غير أنه جعل بين يديه مبحثين: مبحثاً في السرقات الشرعية عامة، ومبحثاً في فنون البديع، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي. والكتب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله. وكأن مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الإطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع، وظلت تعنى بعده بالإطلاع على مباحث العرقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين، تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصوفي المتوفى سنة ٥٤٢ وإذ نراه في كتابه: قانون

(٢٤٠) تاري الجبرتي ١٦٥ / ٢.

(٢٤١) تاريخ الجبرتي ٢٢٧ / ٢ والخطط التوفيقية ٣ / ٣٠٦.

(٢٤٢) أنظر في هذا الكتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤. وقد نشره بدمشق

الدكتور محمد رضوان الداية.

ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفني
الجناس والتورية من فنون البديع.

ولعل أول كتاب بلاغي ألف في مصر بالمعني الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب
التنبهات على عجائب التشبيهات لعل^(٢٤٣). بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣.
وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد
عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة، وقد توفي سنة ٣٢٣. ويذكر ابن ظافر في
مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ في حياة أبيه،
وهو منشور بالقاهرة وجعله ابن ظافر في ستة أبواب: أولها في تشبيه الأجرام العلوية
والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأشجار والنبات والرابع في
التشبيه الواقع في الخمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في
تشبيهات مختلفة. والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة، وخاصة
تلك التي دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب
والأندلس، واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل اليتيمة للثعالبي الخريدة للعماد
الأصبهاني. ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في
التشبيه، غير أن العجب يزول إذا عرفنا أكدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده
وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه، مما جعل دواوين
الشعراء تتداول في أوسع نطاق، بحيث لم يكن يظهر شاعر في بلدة وينال شيئاً من
الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة. ويلقانا بعد ابن ظافر عبد

(٢٤٣) أنظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤.

الرحيم^(٢٤٤). بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه "معالم الكتابة ومغانم الإصابة" يعقد فصلاً للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع. ويتلوه العز بن عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علماً كبيراً في الفقه الشافعي وغيره، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى إيجاز في بعض أنواع المجاز، وهو بذلك كتاب في علم البيان، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز في الذكر الحكيم، عنى فيه بالأمثلة أكثر مما عنى بالقواعد وتفاريحها الكثيرة المعروفة في علم البيان.

وأهم من العز بن عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤. أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالماً لا يشق غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أديباً وعنى بالتأليف في البديع وألف فيه كتاباً أحصى فيه سبعين محسناً من المحسنات البديعية، وسقط الكتاب من أيدي الزمن. أما ابن أبي الإصبع فيعد أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري، وله كتابان: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، وكتاب بديع القرآن. والكتابان جميعاً في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وأي القرآن الكريم، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم، والكتابان منشوران بالقاهرة. ويذكر

(٢٤٤) أنظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١/ ٥٦٠ وشذرات الذهب ٥/ ١١٧ والطالع السعيد

للإدقوى ١٦٠ وكتابه: "معالم الكتابة" طبع بيروت سنة ١٩١٣.

ابن أبى الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها نتبين أنه لم يكد يترك كتاباً ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه، من ذلك نظم القرآن للجاحظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحاتمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبى هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضى والموازنة للآمدي والوساطة لعلى بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشي وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزمخشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لأبن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة. وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فهما وفقها ودراسة واستنباطاً. ويعرض ابن أبى الإصبع في كتابه تحرير التحبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعاً ثلاثين لوناً، ويسمى هذه الألوان الأصول، حتى إذا انتهى من عرضها اتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسناً، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدابي، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لوناً، ويتلوها بثلاثين لوناً من عمله واكتشافه، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسناً، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه^(٢٤٥). وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني "بديع القرآن" ذكر فيه أولاً - كما قلنا آنفاً - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة، ثم مضى في ذكر المحسنات الصور

(٢٤٥) نفحات الأزهار على نسبات الأسحار (طبع دمشق) ص ٣.

البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كال تكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو إطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعة وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده.

وتشغل مصر طويلاً بكتابي ابن أبي الإصبع، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناهم تسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، وكان لخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي، وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد. مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه، ويعنى بذلك شارح مصري هو أحمد^(٢٤٦). بن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ ويسمى شرحه "عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح" ونراه في فواتحه يشيد بالمصريين وما طبعوا عليه من الذوق السليم الذي أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعاً العلوم العقلية والفلسفية، ويصور عمله في شرحه قائلاً: "أعلم أني مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعريية.. ومنتها شيئاً من القواعد المنطقية والمعاهد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية". وكأنها أعدته في شرحه طريقة المشرقيين أو المشاركة، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق. وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهى مدائح

(٢٤٦) أنظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات الشافعية ١٠/١٣٩ وراجع في الدرر الكامنة ١/٢١٠ وشذرات الذهب ٣/٢٢٦ والنجوم الزاهرة ١١/١٢١ وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ١/٢١.

نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع، بحيث يضم كل بيت محسناً من تلك المحسنات. وصنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها. ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري، حتى إذا كنا بأخرة من زمن المماليك ووجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها "نظم البديع في مدح خير شفيح" وله عليها شح. وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠. وتعتني مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد التفتازاني.

وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر، ويلقانا في أوائل العصر - كما مر بنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنابلة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده^(٢٤٧). وهو يذكر في تقديمه لكتابة أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فضلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً. وتحدث حديثاً مجملاً - عرضاً له - عن فنون البديع، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعقباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً. وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوانوا ببيان سرقات المتنبي، إذ يدل على كثرة محفوظة وفطنته ودقته في الفهم. وقديماً قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا

(٢٤٧) أنظر أو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧.

يتوسعون في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفني، ويحاولون أن يتبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير. ونعجب أن يحاول أن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوي لبيت وقع عليه عفواً هنا أو هناك، والشاعر لا يقاس ببعض عشرات له ندت عنه، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة. وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جنى يؤلف كتاباً في النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته^(٢٤٨). كما جعل ابن رشيق يقول عنه: "ما أبعد الإنصاف منه"^(٢٤٩). وربما جرا ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه. ولم يؤد كتاب المنصف غايته من الهبوط في مصر بمنزلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشييعهم له، مما جعل العميدي^(٢٥٠). محمد بن أحمد كاتب الإنشاء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكبت بحثاً ثانياً في سرقاته باسم "الإبانة عن سرقات المتنبي" وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية.

وما تزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مراراً ابن منجب الصيرفي في رسائله، وما تزال معنية بالمتنبي. بل إنها لتمد عنايتها إلى جميع شعراء العالم العربي.

(٢٤٨) معجم الأدباء ١٢/١١٣.

(٢٤٩) العمدة لابن رشيق ٢/٢١٦.

(٢٥٠) أنظر العميدي في معجم الأدباء ١٧/٢١٢ وإنباه الرواة ٣/٢٤٦ وبغية الوعاة للسيوطي ١٩.

ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول^(٢٥١). لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل، وفيها يعرضان كثيراً لشعراء العالم العربي. ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار، يقصد حكمه البديعة. وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه "ليس من أهل اختياره. ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره، لأن بحاره زخّارة، وأسوده زّارة، ومعدن تبره مردوم بالحجارة، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة، يطمع ويؤنس، ويوحش ويؤنس، وينير ويظلم، ويصبح ويعتم، شذرة وبذرة، ودرة وآجره، قبل بجانبها لسعة"، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي، وهو نقد دقيق، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنع منتخب لشعر ابن رشيق، فصنعه، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي، يقول: "ولو لم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلاً عن أن ينظمه أو يعلمه، وهو ينهب أشعار هذين الرجلين نهبا قبيحاً ولا سيما أبْن المعتز". وينوه ابن سناء الملك مراراً في الرسائل بابن المعتز والبخري. وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحياناً في بعض أبيات

(٢٥١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية..

لابن سناء الملك، وأورد القلقشندي في صحبه نموذجاً^(٢٥٢). من هذه الرسائل المتبادلة بين الأدبيين الكبيرين، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل بيت ابن سناء الملك صليني وهذا الحسن باق بما يعزل بيت الحسن منه يكنس لذكره فيه كلمة "يكنس" المبتدلة، ورد عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز في قوله:

وقوامي مثل القناة من الخط وخدي من لحيتي مكنوس
وكانه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها.
وابن سناء الملك أكبر رمز مصري في العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسي، فقد درس موشحات الأندلسيين، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها، وكأنه يحل من عروض الموشحات الأندلسية محل الخليل بن أحمد من عروض الشعر العربي، وستحدث بشيء من التفصيل عن ذلك في الفصل التالي.
وقد شغل ابن سناء الملك النقد في زمنه وبعد زمنه. لا بما وضعه من عروض الموشحات فحسب، بل أيضاً بشعره، فقد كان أبه شاعر أنجبته مصر حتى أيامه، فشغل النقد طويلاً بأشعاره، وفيه وضع ابن جبارة^(٢٥٣). على بن إسماعيل مواطنه المتوفي سنة ٦٣٢ كتابة "نظم الدر في نقد الشعر" وهو في نقد أشعار ابن سناء الملك، والكتاب

(٢٥٢) أنظر صبح الأعنى ٢/ ٢٤٩-٢٥٢

(٢٥٣) أنظر في ابن جبارة نكت الهيمان ص ٢٠٨ وبغية الوعاة ص ٣٢٩.

مفقود، غير أن الصفدي في كتابه "الغيث المسجّم" الذي وضعه في شرح لأمية العجم نقل عنه أطرافاً من نقده لبعض أبيات ابن سناء الملك، ونره فيها متحاملاً عليه تحاملاً شديداً أو كما قال الصفدي في نكت الهميان "متعينا تعنتا زائداً". من ذلك قول ابن سناء الملك:

بشوك القنا يحمون شهد رضاها ولا بد دون الشهد من إبر النحل
يصف في البيت منعة صاحبه وأن أحداً لا يستطيع أن يقترب من حماها لبأس قومها
وخشية من رماحهم أن تسفك دمه. وتوقف ابن جبارة بإزاء البيت^(٢٥٤). وقال إنه أراد
أن يمدح قوم صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذي جعله كفن ميته لأنه جعل
طعن رماحهم كإبر النحل، يقو ابن جبارة: وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحص منها.
ويرد عليه الصفدي قائلاً: أما كونه يدعى أنه لا ألم في إبر النحل ولا ضرر في الزناير
فهذا مما لم يسمع، وهو تحامل أليس في إبر النحل والزناير سم يمنع القرب منه والدنو
إليه، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه، وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورم
منه ومات. ورد عليه أيضاً ما قاله من أنه شبه طعن رماح القوم بإبر النحل فهو لم يعقد
في البيت تشبيهاً، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه لا تنال إلا بعد
مشقة. وأنكر ابن جبارة في البيت أيضاً كلمة "بشوك القنا" وقال الصفدي رداً عليه إنها
استعارة حسنة، وأنشد بيتين للأرجاني وأبن خفاجة شبها فيها القنا بالشوك. وتوقف

(٢٥٤) الغيث المسجّم شرح لأمية المعجم (طبع مطبعة بولاق) ١/ ٢٢٤.

أبن جبارة بإزاء^(٢٥٥). بيت نظم أبن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل، إذ يقول:

يَقْرِي الضيُوفَ شعاعَ تَبَرٍ أَحْمَرٍ فشعاعُ ذاك التَّبَرِ نيرانُ القرى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبى. وقال الصفدي: إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران. ويسترسل أبن جبارة في نقده للبيت فيقول: قوله: "يقرى الضيوف شعاع تبر أحمر" التبر لا يكون إلا كذاك (أي أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التي توقد على اليفاع ليهتدي بها الحيران. وتهتدي إلى مواضعها الضيفان، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام. يقول الصفدي: وهذا تعنت لأن التبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك تبراً مجازاً، ولولا أن هذا لازم لما قيل في بعض قصائد الشاعر. وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد.

ولا شك في أن النقد الأدبي المصري في هذا العصر خسر كثيراً بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن. ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدي. وهو فعلاً لم يتوسع في نقله. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعر لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدي بسبب بحث

(٢٥٥) الغيث المسجم ١/ ٢٦٤ وأنظر ١/ ١٢٨، ٢٤٣.

كتبه عن سرقاته من الشعر السابقين فألف هذا الكتاب موضحاً فيه سرقات الصفدي لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده. وفي مقدمته^(٢٥٦). يقول: إنه ليس للصفدي من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكلتها. ومضى يذكر الأصل^(٢٥٧). من أبياته أو الأصول، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدي. وفي صبح الأعشى دراسة^(٢٥٨). نقدية طريفة للمعاني والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة. وولتقي في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه "ريحانة الألبا" الذي ترجم فيه لشعراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر، وقد بث فيه ملاحظات نقدية كثيرة.

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام:

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم. وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد^(٢٥٩). الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة. ورحل كثير من

(٢٥٦) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموي احتفظ في خزائنه (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب ص ١٥.

(٢٥٧) في الخزانة جملة كبيرة من هذا الكتاب أنظر الصفحات ٢٨٥-٢٨٩.

(٢٥٨) أنظر صبح الأعشى ٢/ ١٩٢-٣٣٨.

(٢٥٩) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨.

المصريين إلى المدينة في القرن الثاني لحمل قراءة إمامها نافع الذي طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامي حتى وفاته سنة ١٦٩. وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش^(٢٦٠). عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهراً في العربية. وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مر بنا في غير هذا الموضع، ولا يزالون يقرءون بها إلى اليوم. ومن أهم تلاميذه المصريين عبد^(٢٦١). الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطي: وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه. ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجري تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء. كما تعنى بما يؤلف فيها من مصنفات، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذي جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبي عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحزمة والكسائي أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالماً مصرياً معاصراً له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتاباً في اختلاف السبعة^(٢٦٢). المذكورين، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه. ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي.

(٢٦٠) أنظر في ورش . حسن المحاضرة ١/ ٤٨٥ وطبقات القراء ١/ ٥٠٢.

(٢٦١) أنظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ١/ ٤٨٦ وطبقات القراء ١/ ٣٨٩.

(٢٦٢) حسن المحاضرة ١/ ٤٨ وأنظر طبقات القراء ٢/ ٣٠١ حيث يذكر تلمذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد.

وأول من نفق عنده عبد^(٢٦٣). المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم أبوه طاهر^(٢٦٤). المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره. ونمضى في القرن الخامس فلتقي بعيد^(٢٦٥). الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب الروضة، وملتقى بالحسن^(٢٦٦). بن محمد البغدادى المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة، وملتقى بإسماعيل^(٢٦٧). بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه "العنوان". وملتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر^(٢٦٨). وملتقى في القرن السادس بابن الفحام^(٢٦٩). شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد، كما ملتقى بابن^(٢٧٠). بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات.

(٢٦٣) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ١/ ٤٩٠ وطبقات القراء ١/ ٤٧٠ والنشر في القراءات العشر ١/ ٧٩.

(٢٦٤) أنظر في طاهر حسن المحاضرة ١/ ٤٩١ وطبقات ١/ ٣٥٦ والنشر في القراءات العشر ١/ ٧٣،

(٢٦٥) أنظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ١/ ٤٩٢ وطبقات القراء ١/ ٣٥٧ والنشر ١/ ٧١.

(٢٦٦) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ١/ ٤٩٣ وطبقات القراء ١/ ١٣٠ والنشر ١/ ٧٤.

(٢٦٧) أنظر في ابن خلف حسن المحاضرة ١/ ٤٩٤ وطبقات القراء ١/ ١٦٤ والنشر ١/ ٦٤.

(٢٦٨) أنظر في المعدل المصري طبقات القراء ٢/ ٣١٨ والنشر في القراءات العشر ١/ ٦٦.

(٢٦٩) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ١/ ٤٩٥ وطبقات القراء ١/ ٣٧٤ والنشر ١/ ٧٥.

(٢٧٠) أنظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ١/ ٤٩٤ وطبقات القراء ١/ ٢١١ والنشر ١/ ٧٢.

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي^(٢٧١).
الضرير المتوفى بالإسكندرية ٥٩٠ وقصيدته "جزء الأماني" المعروفة باسم الشاطبية
نسبة إليه، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم^(٢٧٢).
السخاوي المتوفى - كما مر بنا - سنة ٦٤٣ وله في القراءات كتاب جمال القراء وكمال
الإقراء. وكان يعاصره عبد الرحمن^(٢٧٣). بن إسماعيل الصفراوي الإسكندري المتوفى
سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإعلان. ويتوالى التأليف في القراءات ونلتقي بابن الجندي
المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان، وبشرح للسيوطي على الشاطبية. ويختتم الإمام
شهاب^(٢٧٤). الدين القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ زمن المماليك بكتابه الرائع: "لطائف
الإشارات لفنون القراءات" وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة، بإضافة قراءات
أبني جعفر يزيد بن القعقاع المدني ويعقوب بن إسحق البصري وخلف بن هشام
الكوفي المكلمين للعشرية، وإضافة قراءات ابن محيصن المكي واليزيدي البصري
والحسن البصري والأعمش الكوفي إلى ما ذكرناه آنفاً من قراءات السبعة الذين صنف
فيهم ابن مجاهد كتابه. ويظل التأليف في القراءات لزمن العثمانيين ناشطاً ومن أهم ما
ألف في زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يعنى بعرض القراءات الأربع عشرة ألفه البناء
أحمد بن محمد الدمياطي المتوفى سنة ١١١٧.

(٢٧١) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ١/ ٤٩٦ وطبقات القراء ٢/ ٢٠ وطبقات الشافعية ٧/ ٢٧٠

ونكت الهيئان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ١٦/ ٢٩٤ والنشر ١/ ٦١.

(٢٧٢) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨.

(٢٧٣) أنظر في الصفراوي حسن الحاضرة ١/ ٤٥٦ وشذرات الذهب ٥/ ١٨.

(٢٧٤) راجع في القسطلاني الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ والشذرات ٨/ ١٢١ والبدر الطالع ١/ ١٠٢

ومعروف أنه تكونت علوم كيرة حول القرآن الكريم، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجري، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذي مر ذكره أن يؤلف في جوانب منها، فقد ألف كتاباً في النسخ والمنسوخ وكتاباً في الوقف والابتداء وألف كتاباً في الوقف والابتداء وألف كتاباً - كما مر بنا - في إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة في هذا الموضوع. وظلت مصر تعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخة ولغاته وغريبة وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة. ويطول الحديث لو أنا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم، ولكن نكتفي بالإشارة إلى كتابين هما البرهان في علوم القرآن لبدر^(٢٧٥). الدين الزركشي المتوفي سنة ٧٩٤ والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفي السيوطي كما مر بنا سنة ٩١١.

ومن أهم هذه العلوم على التفسير، وطبيعي أن تعنى به مصر منذ دخلت في الإسلام حتى تفهم أي الذكر الحكيم، وكان حفاظها يروون خلفاً عن سلف ما قيل في معاني أي الذكر الحكيم، واشتهر بها في القرن الثاني طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم، هو طريق على بن أبي طلحة الهاشمي وفيه يقول أحمد بن حنبل: (إن بمصر صحيفة في التفسير رواها على بن أبي طلحة الهاشمي لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً". ويذكر السيوطي أن البخاري اعتمد على هذه الرواية كثيراً

(٢٧٥) أنظر في الزركشي الدرر الكامنة ١٧/٤ وشذرات الذهب ٦/٣٣٥ وحسن المحاضرة ١/٤٣٧

وإنباء الغمر بأبناء العمر ١/٤٤٦.

في صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس^(٢٧٦).. وكأنها بعض ما حمله البخاري عن مصر في رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلة رواته فيها. وتظل مصر معنية بالقرآن وتفسيره وأحكامه، ويؤلف أبو جعفر الطحاوي الفقيه الحنفي المتوفى سنة ٣٢١ كتاباً في أحكام القرآن. ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن، ولا يلبث أحد تلاميذه، وهو أكر بكر الأدفوي^(٢٧٧). محمد بن علي المصري المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف في التفسير كتاباً ضخماً يقول المترجمون له إنه كان في مائة وعشرين مجلداً، وسماه كتاب الاستغناء في علوم القرآن، وأهم تلاميذه الحوفي المار ذكره بين النحاة، وله كتاب البرهان في تفسير القرآن في ثلاثين مجلداً ويقول القفطي: صنف كتاباً كبيراً في إعراب القرآن في عشرة مجلدات. وهو وأستاذه أهم المفسرين في زمن الفاطميين، ومن نلتقي به في زمن الأيوبيين المرسى^(٢٧٨). السلمي محمد بن عبد اله نز مصر واستر بها سنة ٦٢٤ وتوفي سنة ٦٥ وله تفسير كبير في أكثر من عشرين جزءاً سماه "ري الظمان في تفسير القرآن". وكان يعاصره العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي المشهور وله تفسير، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية، بناه على الوجه البيانية والبلاغية في أي الذكر الحكيم.

(٢٧٦) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٢٢٣.

(٢٧٧) نظر الإدفوي في طبقات المفسرين للسيوطي وحسن المحاضرة ١/ ٤٩٠ وطبقات القراء ٢/ ١٩٨.

(٢٧٨) راجع في المرسى السلمي طبقات المفسرين ص ٣٥ ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٠٩ وشذرات الذهب

ونمضى في زمن الممالك وملتقى بالقرطبي^(٢٧٩). محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة المنيا (منية الخصيب في الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى "جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي القرآن" ويلقانا بعده ابن^(٢٨٠). المنير أحمد بن محمد الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه "البحر الكبير في نخب التفسير" وكتاب ثان تتبع فيه آراء الزمخشري الاعتزالية التي بثها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة، سماه الانتصاف من الكشف وهو مطبوع على هوامشه. ويتلوه ابن^(٢٨١). النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه "التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير" وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه. وقد سقط الكتاب من يد الزمن، ربما لضخامة حجمه. وكان يعاصره عبد^(٢٨٢). العزيز الديري المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير، وأيضاً كان يعاصره العلم^(٢٨٣). العراقي المصري المتوفى سنة ٧٠٤ وسمي العراقي نسبة إلى جده لأمه، وكان هذا الجد مصرياً غير أنه دخل العراق فلقب بهذا

(٢٧٩) أنظر القرطبي في الديباج المذهب لابن فرحون (طبع فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطي ص ٢٨ وشذرات الذهب ٥/ ٣٣٥.

(٢٨٠) راجع ابن المنير في الديباج المذهب ٧٨ وشذرات الذهب ٥/ ٣٨١ والنجوم الزهراء ٧/ ٣٦١ وفوات الوفيات ١/ ١٣٢.

(٢٨١) أنظر ابن النقيب في طبقات المفسرين ص ٣٢ وشذرات الذهب ٥/ ٤٤٢ وفوات الوفيات ٢/ ٤٣٠.

(٢٨٢) راجع الديري في حسن المحاضر ٢/ ٤٢١.

(٢٨٣) أنظر في العلم العراقي حسن الحاضرة ١/ ٤٢١ ونكت الهيان ص ١٩٥ والدرر الكامنة ٣/ ١٣.

الاسم الذي انتقل إلى حفيده، وله كتاب في الانتصار للزنجشري من أبْن المنير وله مختصر في التفسير.

وأكبر المفسرين في القرن الثامن أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط مشهور، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداؤه في الأندلسيين. وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطي وله تفسير كبير يسمى "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" مطبوع في ستة مجلدات. وكان جلال الدين المحلي محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء، وتفسيرهما مطبوع في جزء باسم تفسير الجلالين. ويدخل زمن العثمانيين، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب^(٢٨٤). الشربيني المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير.

وتموج مصر بحفاظ الحديث النبوي منذ نزولها صاحبة وفي مقدمتهم أبو ذر الذي سكنها مدة وعقبة بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفي مقدمتهم نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبي هريرة ويزيد بن أبي حبيب. وكثر حفاظ الحديث ورواته في القرن الثاني الهجري، ومن أهم أبو زرعة المتوفى سنة ١٥٨ وابن لهيعة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور، وعبد الله^(٢٨٥). بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم

(٢٨٤) راجع في الخطيب الشربيني شذرات الذهب ٨ / ٣٨٤.

(٢٨٥) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر، وقد عثر على كتابه أخيراً في ورق بردي بمدينة إدفو في جنوبي مصر وأسمه الجامع في الحديث، وهو مكتوب في القرن الثالث الهجري، وقد نشر هذا الكتاب في

تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه: البويطي وحرملة والمزني والربيع. ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحار بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨. ولاشتهار مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح السنة البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفي سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته: السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة، وله مسند على ومسند مالك. ويلقانا الطحاوي الفقيه الحنفي وله في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار، وابن حنزابة وزبي ركافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث في وزارته، وسمع الدراقطني حافظ العراق في زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسنداً فجاء مصر ليعينه، تمول، وكان فيها يروى الحديث ويمليه، ويأخذه عن حفاظة المصريين ويأخذه المصريون عنه. ومن أهم تلاميذه بمصر عبد^(٢٨٦). الغني بن سعيد الحفاظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله في الحديث المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال وكتاب مشتببه النسبة. وأشهر والمحدثين

المعهد الفرنسى بالقاهرة. وأنظر في ابن وهب حسن المحاضرة ١/٣٠٢، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧

وتهذيب ١٠/٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢/٨٦ وبروكلمان ٣/١٥٥.

(٢٨٦) أنظر في عبد الغني المنتظم ٧/٢٩٠ وابن خلكان ٣/٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٥٠ وشذرات الذهب ٣/١٨.

بمصر في القرن الخامس تلميذه الحبال^(٢٨٧). الإمام الحافظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة، وجمع عوالي سفيان بن عيينه.

وينزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السلفي^(٢٨٨). أكبر الحفاظ في القرن السادس الهجري، وقد قصده طلاب الحديث النبوي من كل فج، على نحو ما يصور ذلك معجمه، وهو مطبوع، وبني له العادل بن السلار وزير الظافر الفاطمي مدرسة سنة ٥٤٦. كما مربنا. وفوض أمرها إليه، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته، وظلت إليه الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦. ومن أهم تلاميذه أبو الحسن علي^(٢٨٩). بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرس بمدرسة ابن شكر في القاهرة، وله كتاب الأربعين، وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً.

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث^(٢٩٠). الكاملية حتى توفي في سنة ٦٣ وولى مشيخة هذه الدار بعده زكى الدين المنذري الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد^(٢٩١). العظيم بن عبد القوى المصري

(٢٨٧) راجع في الحبال حسن المحاضرة ١/ ٣٥٣.

(٢٨٨) انظر في السلفي طبقات المفسرين للسيوطي ص ٦ وطبقات الحفاظ له ٢/ ٣٩ وابن خلكان ١/ ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣/ ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١/ ٤٤٩ والسبكي ٦/ ٣٢ والانساب ٣٠٢ وشذرات الذهب ٤/ ٢٥٥ وطبقات القراء ١/ ١٠٢ وميزان الاعتدال ١/ ١٥٥.

(٢٨٩) راجع في ابن المفضل حسن المحاضرة ١/ ٣٥٤ وشذرات الذهب ٥/ ٤٧.

(٢٩٠) ذكر السيوطي في حسن المحاضرة ٢/ ٢٦٢ ثبتا بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين.

(٢٩١) أنظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطي ٢/ ٥٩ والسبكي ٨/ ٣٥٩ وحسن المحاضرة ١/ ٣٥٥

الشافعي المتوفى سنة ٦٥٦ يقول السيوطي إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملية عشرين سنة، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحراً في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قيساً بمعرفة غريبة، إماماً حجة بارعاً في الفقه والعربية والقراءات. وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل، طبع مراراً. وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه. وأهم تلاميذه الدمياطي^(٢٩٢). شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذري واتخذ معيداً له، وقد ول مشيخة الظاهرية ودرس الحديث في المدرسة المنصورية: مدرسة المنصور قلاوون، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث.

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن^(٢٩٣) جماعة الشافعي المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء، واشتهر بإكثاره من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشابية، صنف تخريج أحاديث الإمام الرافعي الشافعي وغير ذلك. ويعنى بشرح البخاري غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند

وشذرات الذهب ٥/٢٧٧ وتذكرة الحفاظ للذهبي ٤/٢٢٨ وفوات الوفيات ١/٦١٠.

(٢٩٢) راجع في الحافظ الدمياطي حسن المحاضرة ١/٣٥٧ وطبقات الحفاظ ٢/٦٥ والسبكي ١٠/١٠٢

وطبقات القراء ١/٤٧٢ وتذكرة الحفاظ ٤/٢٦٨ والدرر الكامنة ٣/٣٠ وفوات الوفيات ٢/٣٧

والبداية والنهاية ١٤/٤٠ والبدر الطالع ١/٤٠٣.

(٢٩٣) أنظر في ابن جماعة حسن المحارة ١/٣٥٩ وشذرات الذهب ٦/٢٠٨ والسبكي ١٠/٧٩ والدرر

الكامنة ٢/٤٨٩.

معلطاي^(٢٩٤). المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطي له أكثر من مائة تصنيف كشرح البخاري وشرح ابن ماجة، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين. ويلقانا بعده الحافظ^(٢٩٥). العراقي المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله في الحديث مصنفات مختلفة، منها منظومة في ألف بيت اشتهرت مع شرحها في الآفاق، ومنها تخريج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي. وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطي عنه: "انتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في لندنيا بأسرها. فلم يكن في عصره حافظ سواه، وألف كتباً كثيرة "مثل فتح الباري في شرح صحيح البخاري" وهو مطبوع، وله غير كتاب في تراجم المحدثين. وأهم الحافظ بعد السيوطي، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب في الحديث ومصطلحه وتخريجاته تعد بالعشرات^(٢٩٦). ومن أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى في الحديث مع رواياته وأسانيده. ومر بنا في القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلاني وله إرشاد الساري إلى صحيح البخاري، وهو مطبوع. وملتقي في أيام العثمانيين بعبد الرؤوف المناوي المتوفى سنة ١٠٣١ وله "كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق" وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً، وهو مطبوع مرراً. ويموج كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه، ونكتفي بذكر أحد أعلامهم، وهو الحفني محمد بن سالم المتوفى

(٢٩٤) راجع في معلطاي حسن المحاضرة ١/ ٣٥٩ والدرر الكامنة ٥/ ١٢٢.

(٢٩٥) انظر في العراقي الضوء اللامع لسخاوي ٤ رقم ٤٥٢ وحسن المحاضرة ١/ ٣٦٠ والشذرات ٧/ ٥.

(٢٩٦) انظر في مؤلفات السيوطي في الحديث كتابه حسن المحاضرة ١/ ٣٤٠.

سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرتي أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديري الدمياطي، يقول: "أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجه وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعي والمعجم الكبير للطبراني والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرک للنيسابوري وحلية الأولياء للحافظ أبي نعيم وغير ذلك^(٢٩٧)". ولعل في هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر في دراسة الحديث النبوي وروايته حتى نهاية هذا العصر، فقد ظل حفاظة النابهون يعدون بالعشرات.

وكان لمصر نشاط خصب في الفقه، ومعروف أن أقدم المذاهب في النشأة المذهب الحنفي، وتبعه المذهب المالكي فالمذهب الشافعي فالمذهب الحنبلي، وتأخرت مصر في التعرف على مذهب أبي حنيفة، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة، وكان مقرباً لهارون الرشيد: أن يكون القضاة في الدولة العباسية أحنافاً وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار^(٢٩٨). بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة. ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي^(٢٩٩). أبو جعفر أحمد بن محمد بن

(٢٩٧) تاريخ الجبرتي ١/ ٢٨٩.

(٢٩٨) انظر في بكار حسن المحاضرة ١/ ٤٦٣ وابن خلكان ١/ ٢٧٩ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ١/ ١٦٨ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوياً ص ١٩.

(٢٩٩) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٢/ ٥٤ والمتنظم ٦/ ٢٥٠ وحسن المحاضرة ١/ ٣٥٠ وابن خلكان ١/ ٧١ وطبقات القراء ١/ ١١٦ ١٠٢/ ١ وتاج التراجم ص ٨ والشذرات ٢/ ٢٨٨.

سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر. وكتبه تعد مراجع أساسية في المذهب الحنفي، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة. وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار. ومن أهم تلاميذه إسحق^(٣٠٠). بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر، وتولى القضاء بها. ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى^(٣٠١). بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية.

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه. وقد عين بها عبد^(٣٠٢). الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤. وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد^(٣٠٣). الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالبدر بن المجن، وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩. وممن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن^(٣٠٤). الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢. ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى

(٣٠٠) أنظر في إسحق الجواهر المضية ١/ ١٣٦ والفوائد البهية ٢٢.

(٣٠١) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ والجواهر المضية ١/ ٣٣٠.

(٣٠٢) انظر في الجريري حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤.

(٣٠٣) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ١/ ٤٦٤ وشذرات الذهب ٤/ ٣٤١.

(٣٠٤) أنظر في الغزنوي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٥ والجواهر المضية ١/ ٣٥٢.

بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو^(٣٠٥). القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣. وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر بيبرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، فكان لكل مذهب قاضيه، وأيضاً فإنه جعل للحنفية نصيباً في مدرسته الظاهرية وأول حنفي درس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧. ومن درس المذهب بالسيوفية لؤلؤ^(٣٠٦). بن أحمد وأبو بكر^(٣٠٧). بن محمد الإسوي. ومن قضاتهم النعمان^(٣٠٨). بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدوري. ويختتم القرن السابع بابن النقيب الذي مر ذكره بين المفسرين. ومن فقهاء القرن الثامن الناهين أحمد^(٣٠٩). بن إبراهيم السروجي المدرس بالسيوفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولى القضاء، وله شرح في كتاب الهداية للمرغيناني. وابن^(٣١٠). يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبراني. وكان يعاصره ابن^(٣١١). التركماني المتوفى سنة

(٣٠٥) أنظر القوصي في حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضية ٣٠٤/١.

(٣٠٦) أنظر في لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٦/٢ والجواهر المضية ٤١٦/١.

(٣٠٧) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١.

(٣٠٨) راجع في النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضية ٢٠١/٢.

(٣٠٩) أنظر في السروجي حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضية ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١.

(٣١٠) راجع في ابن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضية ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣.

(٣١١) أنظر في ابن التركماني حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضية ٣٤٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠.

والدرر الكامنة ٤٩/٣.

٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون، وألقى بها شرحاً له على الجامع الكبير أملاه دروساً على الطلاب. وأنجب فقهاء: أحمد^(٣١٢). المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير. وعلى^(٣١٣). المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح، وتولى قضاء الديار المصرية. وكان يعاصرهما فخر الدين الزيلعي^(٣١٤). المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كنز الدقائق في الفروع للحافظ النسفي سماه تبين الحقائق على كنز الدقائق طبع بمصر في ستة أجزاء. ويلقانا السراج^(٣١٥). الهندي قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل في الفروع وشرح البديع، وكان يعاصره ابن^(٣١٦). أبى الوفا عبد القادر محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضية في طبقات الحنفية المثبوت في الهوامش. وملتقى بأكمل^(٣١٧). الدين البابرقي المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة على أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوي.

(٣١٢) راجع أحمد في حسن المحاضرة ١/ ٤٦٩ والجواهر المضية ١/ ٧٧.

(٣١٣) انظر على حسن المحاضرة ١/ ٤٦٩ والجواهر المضية ١/ ٣٦٦.

(٣١٤) راجع في الزيلعي حسن المحاضرة ١/ ٤٧٠ والجواهر المضية ١/ ٣٤٥ والدرر الكامنة ٣/ ٦١.

(٣١٥) أنظر في السراج حسن المحاضرة ١/ ٤٧٠ والدرر الكامنة لابن حجر ٣/ ٢٣٠ والفوائد البهية ١٤٩ وإنباء الغمر ١/ ٢٧.

(٣١٦) راجع في ابن أبى الوفا حسن المحاضرة ١/ ٤٧١ والدرر الكامنة ٣/ ٦ والفوائد البهية ٩٩ وإنباء الغمر ١/ ٦٦.

(٣١٧) أنظر في البابرقي حسن المحاضرة ١/ ٤٧١ والفوائد البهية ١٩٥ وإنباء الغمر ١/ ٢٩٨.

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاةهم بالديار المصرية، حتى نصل، إلى^(٣١٨). ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني، طبع بمصر في ثمانية أجزاء. ونلتقي بالقاسم^(٣١٩). بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة. ونمضي إلى زمن العثمانيين وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه، إذ كان القضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم. ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين^(٣٢٠). بن نجيم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي، وهو مطبوع، وكتاب البحر الرائق على كنز الدقائق وهو مطبوع أيضاً في عدة أجزاء. ومنهم شمس الدين التمرتاشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار. ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلالي المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لاتزال مخطوطة ومحفوطة بدار الكتب المصرية. ومنهم السد أحمد الحموي وله تصانيف عدة، منها شرح الكنز وحاشية الدرر والغرر، توفي سنة ١١٤٢. ويحصى الجبرتي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية.

(٣١٨) أنظر في ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشذرات ٧/٢٩٨ والبدر الطالع ٢/٢٠١ وحسن المحاضرة ١/٤٧٤.

(٣١٩) راجع في ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦/٦٣٥ والشرائح ٨/٣٢٦ والبدر الطالع ٢/٤٥.

(٣٢٠) انظر في ابن نجيم خلاصة الأثر للمحبي ودائرة المعارف الإسلامية.

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً، وكان بعاصر مالكاً فقيه مصري كبير هو الليث^(٣٢١). بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي: "الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به" يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه. ولو أنهم حملوه لأصبح مذهباً مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة). وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب، جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً، وعبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرع على أصول مذهبه فروعاً كثيرة سحبها في مؤلفه المشهور باسم المدونة، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالباً على بلاد المغرب إلى اليوم. ومن تتلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين^(٣٢٢). ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب. ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضاً عبد^(٣٢٣). الله بن عبد الحكيم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة

(٣٢١) راجع في الليث تاريخ بغداد ١٣٣ وابن خلكان ١٢٧/٤ والنجوم الزاهرة ٨٢/٢ وصفة الصفوة ٤/٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٤٢٣/٣ وتهذيب التهذيب ٤٥٩/٨ وعبر الذهبي ٢٦٦/١.

(٣٢٢) أنظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ وتهذيب لابن حجر ٢٥٢/٦ والشذرات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة ٣٠٣/١.

(٣٢٣) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١.

(٣٢٤) أنظر في عبد الله بن عبد الحكيم حسن المحاضرة ٣٠٥/١ والديباج المذهب ٩٨ وعبر الذهبي

المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب، وخلفه على رياسته ابنه محمد^(٣٢٥). المتوفى سنة ٢٦٨. وكان يعاصره الحارث^(٣٢٦). بن مسكين، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقه، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات، وتوفي سنة ٢٥٠. ويعد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيهاً مالكيًا اشتهروا بمصر. ومن نلتقي به في أوائل القرن الرابع أحمد^(٣٢٧). بن الحارث بن مسكن، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو ويدرس للناس الفقه المالكي حتى توفي سنة ٣١١. وكثير من الفقهاء حينئذ ينسبون إلى الإسكندرية والصعيد، إذ كان المذهب منتشرًا بهما. ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن^(٣٢٨). المعافري قاضيهما المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر^(٣٢٩). الأسواني قاضي مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونمضى إلى زمن الفاطميين، وقد عد السيوطي من

١/ ٣٦٦ وابن خلكان ٣/ ٣٤ وتهذيب التهذيب ٥/ ٢٨٩ والشذرات ٢/ ٣٤.

(٣٢٥) راجع في محمد حسن المحاضرة ١/ ٣٠٩ والديباج المذهب ٢٣١ والسبكي والوفاء بالوفيات

٣/ ٣٣٨ والشذرات ٢/ ١٥٤ وميزان الاعتدال ٣/ ٦١١.

(٣٢٦) أنظر في الحارث رفع الإصر عن قضاة مصر ١/ ١٦٧ والسبكي ٢/ ١١٣ وتذكرة الحفاظ ٥١٤

وتاريخ بغداد ٨/ ٢١٦ وابن خلكان ٢/ ٥٦.

(٣٢٧) راجع أحمد في حسن المحاضرة ١/ ٤٤٩ والديباج المذهب ٣٧.

(٣٢٨) أنظر في المعافري حسن المحاضرة ١/ ٤٤٩ والغبر ٢/ ٢٥٠.

(٣٢٩) راجع في أبي الذكر حسن المحاضرة ١/ ٤٤٩ والطالع السعيد للإدفعي ٣٦٤.

الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيهاً، منهم أبو^(٣٣٠). بكر النعالي إمام المالكية بمصر في وقته. وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر في وقته. وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر، وكانت حلقة في الجامع تدول على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها. توفي سنة ٣٨٠ ومنهم أبو القاسم^(٣٣١). الجوهري المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك. ونزل بالقاهرة القاضي عبد^(٣٣٢). الوهاب فقيه بغداد المالكي وكان شاعراً بارعاً، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم: لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية، واجتاز بمعرة النعمان بلدة أبى العلاء فأضافه، وله في الإشادة بفقهه وبشعره:

إذ تفقه أحيا مالكا جدلاً وينشر الملك الضليل إن عرا

والمالك الضليل: أمرؤ القيس. وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها والثالث في يديه الرغائب. ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا. ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو^(٣٣٣). بكر الطرطوشي نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له في السياسية ألفهما أو ألف أحدهما

(٣٣٠) أنظر في النعالي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٠ والديباج المذهب ٢٥٨.

(٣٣١) راجع في الجوهري حسن المحاضرة ١/ ٤٥١ والعبر ٣/ ١٧.

(٣٣٢) أنظر في عبد الوهاب حسن المحاضرة ١/ ٣١٤ والعبر ٣/ ١٤٩ وابن خلكان ٣/ ٢١٩ والديباج المذهب وفوات الوفيات ٢/ ٤٤ والشذرات ٣/ ٢٢٣.

(٣٣٣) راجع في الطرطوشي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٢ والصلة لابن بشكوال: ٥٤٥ والمغرب ٢/ ٢٤٢ وابن خلكان ٤/ ٢٦٢ والعبر ٤/ ٤٨ وأزمار الرياض ٣/ ١٦٢.

لوزير الفاطميين المأمون البطائحي هما سراج الملوك وسراج الهدى. ومن تلاميذه سند^(٣٣٤). بن عنان الأزدي المتوفى سنة ٥٤١ خلفه في حلقة وانتفع به الناس وله شرح المدونة. وكان يعاصره أبو القاسم^(٣٣٥). بن مخلوف الإسكندري أحد الأئمة الكبار من المالكية، تفقه به أهل الثغر زماناً.

ونمضى إلى زمن الدولة الأيوبية، ويلقنا صدر الإسلام أبو الطاهر^(٣٣٦). إسماعيل بنمكي تلميذ الطرطوشي المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته في المذهب، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع منه الموطأ، وله مصنفات، قال فيه ابن فرحون: كان إمام عصره في المذهب وعليهم دار الفتوى. ومر بنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية، وأنشأ لهم وللشافعية لقاضى الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة. وأتاح ذلك كله للفقهاء المالكي بمصر نشاطاً واسعاً منذ زمن الأيوبيين، ومن كبار فقهاء حينئذ ابن شاس^(٣٣٧). عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة في المذهب، درس بالمدرسة القمحية، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦-٦١٨. ومن مدرسي هذه المدرسة الحسين^(٣٣٨). بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتيا

(٣٣٤) انظر في سند حسن المحاضرة ١/٤٥٢ والديباج المذهب ١٢٦.

(٣٣٥) راجع في ابن مخلوف حسن المحاضرة ١/٤٥٣.

(٣٣٦) انظر في أبي الطاهر حسن المحاضر ١/٤٥٢ والديباج المذهب ٩٥.

(٣٣٧) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ١٣/٨٦ وحسن المحاضرة ١/٤٥٤.

(٣٣٨) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ١/٤٥٥ والديباج المذهب ١٠٥.

في وقته، توفي سنة ٦٣٢. واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفرأوي الذي مر ذكره بين القراء. ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدور الكتب. وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم^(٣٣٩). بن عطاء الله الإسكندراني، كان إماماً في الفقه والأصول والعربية، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل. ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر المفصل.

ونمضى في زمن الماليك، ونلتقي بأبي حفص عمر^(٣٤٠). بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضياً. وولى قضاء المالكية بعده نفيس^(٣٤١). الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠. وكان يعاصره القرافي^(٣٤٢). شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصالحية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع. وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن المنير أحمد بن محمد

(٣٣٩) أنظر في عبد الكريم حسن المحاضرة ١/ ٤٥٦ والديباج المذهب ١٦٧.

(٣٤٠) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨.

(٣٤١) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/ ٣١٦ والديباج المذهب ٦٢ والمنهل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب) ١/ ٢١٥.

(٣٤٢) راجع في القرافي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٨ المذهب ٦٢ والمنهل الصافي لابن تغري بردي (طبع دار الكتب) ١/ ٢١٥.

قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين، وكان إماماً فاضلاً متبحراً، وله في الفقه مختصر التهذيب.

ويلقانا في القرن الثامن تاج (٣٤٣) الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف. وكان يعاصره قاضي القضاة علي (٣٤٤) بن مخلوف النوبري المتوفى سنة ٧١٣ ولى قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة. ومن كبار فقهاء المالكية ابن (٣٤٥) الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها، ومع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للملائم. وكان يعاصره الزواوي (٣٤٦) عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت ورياسة المالكية، وله مصنفات مختلفة، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة، وتاريخ ومناقب مالك وأكثر فقهاء المالكية في اقرن الثامن شهرة خليل (٣٤٧) بن اسحق

(٣٤٣) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ١/ ٤٢٤ وطبقات الشعراني ١٩/ ٢ والسبكي ٩/ ٢٣ والخطط الجديدة لعل مبارك ٧/ ٧٠ والبدر الطالع ١/ ١٠٧ والديباج المذهبة ٧٠ وشذرات الذهب ١٩/ ٦ والدرر الكامنة.

(٣٤٤) راجع في ابن مخلوف النوبري حسن الحاضرة ١/ ٤٥٨ والدرر الكامنة.

(٣٤٥) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ١/ ٤٥٩ والديباج المذهب ٣٣٧ والدرر الكامنة ٤/ ٣٥٥.

(٣٤٦) راجع في الزواوي حسن المحاضرة ١/ ٤٥٩ والدرر الكامنة.

(٣٤٧) انظر في خليل حسن المحاضرة ١/ ٤٦٠ والديباج المذهب ١١٧ ونيل الابتهاج ص ٩٥ والدرر

الكامنة ٢/ ١٧٥ ونفح الطيب (طبع بولاق) ٢/ ١٢٠.

المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليلك. وأهم تلاميذه (٣٤٨) بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل. ونزل مر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب. وملتقي بالبساطي (٣٤٩) محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولى القضاء، وكانت إليه الفتيا.

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن المماليك وفي أيام العثمانيين. ومن أعلامهم في القرن الحادي عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري، وهو من شيوخ الأزهر المالكية وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية. وملتقي بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرتي ومن أهمهم الزرقاني (٣٥٠) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين. وشرحه على موطأ مالك مشهور، وأيضاً من أهمهم على (٣٥١) بن أحمد بن مكرم العدوى الصعيدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرتي عنه: "قبل ظهوره لم تكن

(٣٤٨) راجع في بهرام حسن المحاضرة ١/ ٤٦١ والضوء اللامع ٣/ ٢٠.

(٣٤٩) انظر في إسباطي حسن المحاضرة ١/ ٤٦٢ والضوء اللامع ٧/ ٥.

(٣٥٠) راجع الزرقاني في تاريخ الجبرتي ١/ ٦٩.

(٣٥١) انظر ابن مكرم في تاريخ الجبرتي ١/ ٤١٤.

المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية، فهو أول من خدم تلك الكتب بها" ويعدد حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك.

وعلى شاكلة ازدهر مذهب مالك الفقهي بمصر كذلك كان مذهب الشافعي (٣٥٢) مزدهرا، بل ربما كان أكثر ازدهارا، إذ نزل الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ مصر، وأكمل له فيها مذهبه الفقهي. وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامي، كما مر بنا في غير هذا الموضع، بحث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة إتباعا. وبتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفي مذهب أهل الرأي، والمذهب المالكي مذهب أهل الحديث، وهو الذي أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذي سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد. وله في الفقه مصنفه المشهور: الأم، وهو مطبوع في القاهرة مثل الرسالة، وعنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاختصروه وشرحوه مرارا، ومثلها كتاب السن الماثورة والمسند. وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث. وأهم تلاميذه بمصر البويطي والمزني، أما البويطي فهو يوسف (٣٥٣) بن يحيى القرشي الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطي عنه: أحد أئمة الإسلام وأركانها، كان خليفة

(٣٥٢) انظر الإمام الشافعي في الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكي وتاريخ بغداد ٥٦/٢ ومعجم الأدباء ٢٨١/١٧ وان خلكان ١٦٣/٤ ومعجم الأدباء ٢٨١/١٧ وابن خلكان ١٦٣/٤ وتذكرة الحفاظ ٣٦١ تهذيب التهذيب ٢٥/٩ وصفة الصفوة ١٤٠/٢ وحلية الأولياء ٦٣/٩ والف كثيرون في سيرته ومذهبه قديما وحديثا.

(٣٥٣) راجع في البويطي السبكي ١٦٢/٢ وتاريخ بغداد ٢٩٩/١٤ وعبر الذهبي ٤١١/١ وتهذيب التهذيب ٤٢٣/١١ وابن خلكان ٦١/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ٣٠٦/١.

الشافعي في حلقة بعده، وله في الفقه المختصر الشهور الذي اختصره من كلام الشافعي، وحمل إلى بغداد في محنة القول يخلق القرآن، فأصر على رأيه هناك وظل سجينا حتى توفي. المزي (٣٥٤) هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد أخذ عنه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم، وله في الفقه الشافعي: الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمنثور والمسائل المعتمدة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات الشافعية للسبكي غرائب منه. ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة (٣٥٥) محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثماني سنين، ثم ولى قضاء دمشق، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية. وكان يعاصره النسائي ود مر ذكره بين أهل الحديث ومنور (٣٥٦) بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر.

(٣٥٤) أنظر في المزي السبكي ٩٢/٢ والعبر ٢٨/٢ واللباب ١٣٣/٣ وابن خلكان ١١٧/١ والنجوم الزاهرة ٩/٣ والسيوطي ٣٠٧/١ وشذرات الذهب ١٤٨/٢.

(٣٥٥) راجع في أبي زرعة السبكي ١٩٦/٣ والسيوطي ٣٩٩/١ والعبر ١٢٣/٢ والشذرات ٢٣٩/٢.

(٣٥٦) أنظر في منصور السبكي ٤٧٨/٣ والسيوطي ٤٠٠/١ والمغرب في حلى المغرب (قسم الفسطاط)

ص ٢٦٢ وابن خلكان ٢٨٩/٥ ونكت الهميان ٢٩٧ ومعجم الأدباء ١٨٥/١٩ والمنتظم ١٥٢/٦.

ويلقانا في القرن الرابع أبو اسحق (٣٥٧) المروزي إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠
نزىل الفسطاط وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنده في البلاد،
وشرح مختصر المزنى، وانتقل إلى الفسطاط وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس
عليه وضربوا إليه أكباد الإبل. وكان يعاصره أبو بكر (٣٥٨) بن الحداد محمد بن أحمد
المتوفى سنة ٣٤٤ قاضي الفسطاط، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان من مائة جزء،
وله أيضاً كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع والمولدات الذي شرحه كثيرون. ونمضى
إلى زمن الفاطميين، وقد أحصى السيوطي عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من
أيامهم، أهمهم القضاعي (٣٥٩) أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف
كتب الشهاب، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا.
وأحصى السيوطي في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم
الخلعي (٣٦٠) على بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغنى بين البسط
والاختصار وربما كان أهم منه مجلي (٣٦١) بن جميع قاضي القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان

-
- (٣٥٧) راجع في المروزي تاريخ بغداد ١١/٦ وابن خلكان ٢٦/١ والسيوطي ٣١٢/١.
(٣٥٨) انظر في ابن الحداد السبكي ٧٩/٣ والسيوطي ٣١٣/١ وتذكرة الحفاظ ١٠٨/٣ والعبر ٢٤٦/٢
وابن خلكان ١٩٧/٤ والوافي ٦٩/٢ والشذرات ٣١٧/٢.
(٣٥٩) راجع في القضاعي السبكي ١٥٠/٤ وابن خلكان ٢١٢/٤ والوافي ١١٦/٣ والسيوطي ٤٠٣/١
والشذرات ٢٩٣/٣.
(٣٦٠) انظر في الخلعي السبكي ٢٥٣/٥ والعبر ٣٣٤/٣ والسيوطي ٤٠٤/١ والشذرات ٣٩٨/٣ وابن
خلكان ٣١٧/٣.
(٣٦١) راجع في مجلي السبكي ٢٧٧/٧ والسيوطي ٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشذرات ١٥٧/٤ وابن

من أئمة الفقهاء وكبارهم وله في الفقه مصنفات أهمها كتاب الذخائر. وكان يعاصره
الفقيه الشافعي ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ وبمجرد أن يظل مصر لواء لاح الدين
الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا. وفوض
القضاء بمصر للشافعية، فاتسع نشاطهم، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم
للخبوشاني (٣٦٢) محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله في الفقه كتاب تحقيق المحيط.
ومن كبار فقهاء الشافعية في عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقي المصري المتوفى
سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراق، وله
شرح في كتاب المذهب لأبي اسحق الشيرازي أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد
كان شرحاً كبيراً في عشرة مجلدات. وكان يعاصره عبد (٣٦٣) الملك بن عيسى بن
درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضي قضاة الشافعية في عهد صلاح الدين، وأنا عنه أخاه
عثمان (٣٦٤) في قضاء القاهرة وله شرح على المذهب سماه الاسقتضاء، وشرح ثان على
كتاب اللمع لأبي اسحق الشيرازي، توفي سنة ٦٢٢. ويلقانا محمد (٣٦٥) بن عين
الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري، واشتهر لزمه بأنه رد

خلكان ١٥٤/٤.

(٣٦٢) انظر في الخبوشاني السبكي ١٤/٧ والسيوطي ٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤
والشذرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦.

(٣٦٣) راجع في ابن درياس السيوطي ٤٠٨/١ ورفع الإصر: ٣٦٧.

(٣٦٤) انظر في عثمان السبكي ٣٣٧/٨ والسيوطي ٤٠٨/١ والشذرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢.

(٣٦٥) راجع في ابن عين الدولة السبكي ٦٣/٨ والسيوطي ٤١٢/١ والعبرة ١٦٢/٥ والشذرات
٢٠٥/٥.

شهادة السلطان الكامل، وقال له: أنت تحكم ولا تشهد. وأهم الفقهاء بعده في زمن الأيوبيين العز (٣٦٦) بن عبد السلام وقد مر لنا في الفصل السابق حديث عنه مع المماليك، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالفسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلي. ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوض تدريس الشافعية بها إليه، وطالت أيامه إلى زمن المماليك إذ توفي سنة ٦٦٠ وله في الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيراً وكتاباً في مجاز القرآن.

وقد أحصى السيوطي من فقهاء الشافعية زمن المماليك أكثر من مائة فقيه، لأكثرهم مصنفات وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعي، ومن أهمهم ابن (٣٦٧) دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العز بن عبد السلام وله مصنفات كبيرة في الفقه والحديث ومصطلحه. وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد (٣٦٨) بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيخين: الرافعي القزويني والنووي الدمشقي في الاعتماد عليه في ترجيح الآراء الفقهية في مذهب الشافعي، درس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية في عشرين مجلداً والمطلب في ستين مجلداً. ومن كبار الفقهاء

(٣٦٦) انظر في العز السبكي / ٢٠٩ والسيوطي / ١ / ٣١٤ والشذرات / ٥ / ٣٠١ والعبر / ٥ / ٢٦٠ ومروية الجنان / ٤ / ١٥٣ وفوات لوفيات / ١ / ٥٩٤ والنجوم الزاهرة / ٧ / ٢٠٨.

(٣٦٧) راجع في ابن دقيق العبد السبكي / ٩ / ٢٠٧ والسيوطي / ١ / ٣١٧ والشذرات / ٦ / ٥ والبدر الطالع / ٢ / ٢٢٩ ومروية الجنان / ٤ / ٢٣٦ والوافي / ٤ / ١٩٣ والطالع السعيد للإدفعي / ٣١٧ وفوات الوفيات / ٢ / ٤٨٤ والدرر الكامنة / ٤ / ٣١٠ وتذكرة الحفاظ / ١٤٨١.

(٣٦٨) انظر في ابن الرفعة السبكي / ٩ / ٢٤ والسيوطي / ١ / ٣٢٠ والشذرات / ٦ / ٢٢ ومروية الجنان / ٤ / ٢٤٩ وابدر الطالع / ١ / ١١٥ والدرر الكامنة / ١ / ٣٠٣.

الشافعية القمُولي (٣٦٩)، أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاح البحر المحي في شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى. وكان يعاصر بدر (٣٧٠) الدين بن جماعة قاضي القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات في فنون كثيرة. وملتقى بالزنكلوني (٣٧١) أبى بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبية لأبى اسحق الشيرازي عم النفع به وشرح ثان على المناهج للنووي. وكان يعاصره سليمان (٣٧٢) بن جعفر الإسنوي المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطوع. وملتقى بتقي (٣٧٣) الدين السبكي على بن عبد الكافي المتوفى في نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة في الفقه وشروح كتبه الكبرى. ومن تلاميذه ابنه بها الدين السبكي الذي مر ذكره بين البلاغيين، وله في الفقه شرح على كتاب الحاوي للشيخ نجم الدين القزويني المتوفى سنة ٦٦٥. وكان يعاصره عبد (٣٧٤)

(٣٦٩) راجع في القمُولى السبكي ٣٠ / ٩ والسيوطى ٤٢٤ / ١ والدرر الكامنة ٣٢٤ / ١ والشذرات ٧٥ / ٦ والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٢٧٩ / ٨.

(٣٧٠) راجع في ابن جماعة السبكي ١٣٩ / ٩ والسيوطى ٤٢٥ / ١ والدرر الكامنة ٣٦٧ / ٣ وفوات الوفيات ٣٥٣ / ٢ ونكت الهميان ٢٣٥ ومرآة الجنان ٢٨٧ / ٤ والنجوم الزاهرة ٢٩٨ / ٩.

(٣٧١) انظر في الزنكلونى السيوطى ٤٢٦ / ١ والشذرات ١٢٥ / ٦.

(٣٧٢) راجع في سليمان السيوطى ٤٢٩ / ١.

(٣٧٣) السبكي ترجم له أبنة بهاء الدين في طبقات الشافعية ١٣٩ / ١٠ وانظر في ترجمته السيوطى ٣٢١ / ١ والدرر الكامنة ١٣٤ / ٣.

(٣٧٤) انظر في الإسنوى السيوطى ٤٢٩ / ١ والدرر الكامنة ٤٦٣ / ٢.

الرحيم بن الحسن الإسني المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة، منها المهمات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية في زمانه.

ويلقانا ابن (٣٧٥) الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمانه تصنيفاً، ومن تصانيفه شرح التنبيه وشرح الحاوي وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه، وتوفي بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني (٣٧٦) عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة، وحمل عن فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي. وكان يعاصره فقيهان هما المحلى والمناوي وبهما ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية. ويعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيقي إذ توفي سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في القه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووي وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبيه وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر، واللوامع والبوارق في الجوامع والفوارق، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة. وملتقى بالشيخ زكريا (٣٧٧) الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة.

ونمضي إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعي ناشطاً، ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر (٣٧٨) الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى

(٣٧٥) راجع في ابن الملقن السيوطي ٤٣٨/١ والضوء الاعم ١٠٠/٦ وشذرت هذه ٤٤/٧.

(٣٧٦) انظر في البلقيني السيوطي ٣٢٩/١ والضوء الاعم ٦ رقم ٢٨٦ والشذرات ٥١/٧.

(٣٧٧) انظر في الشيخ زكريا الضوء الاعم ج ٣ رقم ٨٩٢ والكواك السائرة ١٩٦/١ والبدر الطالع

١/٢٥٢ والنور السافر ص ١٢٥.

(٣٧٨) راجع في ان حجر الهيتمي مقدمة فتاويه والشذرات ٣٧٠/٨ والنور السافر ص ٢٨٧ والبدر الطالع

الهيثيمية طبعت بصر في أربعة مجلدات. وكان يعاصره شمس الدين الشربيني الخطيب الذي مر ذكره بين المفسرين، وله في الفقه شرح مناهج النووي، وهو مطبوع، وله شرح على متن أبي شجاع، ولسليمان البجيرمي حاشية عليه. ويكتظ كتاب تاريخ الجبرقي بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملی (٣٧٩) المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعي بعده.

وظلت مصر لا تعرف المذهب الحنبلي طويلا، ويعلل السيوطي ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالبة، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التي كانت قائمة بمصر، وهي مذاهب الشافعية والملكية والحنفية، فتأخر ظهور المذهب الحنبلي، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغنى (٣٨٠) الجماعلي المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام في معالم الحلال والحرام عن خير الأنام، وله شروح كثيرة. ولمؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال، وصنع له تهذيبا المزري جمال الدين يوسف بن الزكي وأكمل التهذيب معلطاي الذي مر ذكره. وأخذ المذهب الحنبلي يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلي ودرسته فيها إيوانا بجانب أووين

١٠٩/١.

(٣٧٩) انظر في الرملی الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة للغزى ١١٩/٢ والخطط التوفيقية (طبعة

بولاقي) ١١٩/٤.

(٣٨٠) انظر مصادر ترجمة عبد الغنى المقدسي في قسم الشام ص ٥٨٤.

المذاهب الثلاثة السابقة، ودعم ذلك الظاهر بيبرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضي الشافعية. وتوالى اهتمام الماليك، في تأسيس مدارسهم، بالفقه الحنبلي وفقهائه بجانب فقهاء المذهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل. ويترجم السيوطي في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم (٣٨١) الدين أحمد بن حمدان الحراني المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة عمر (٣٨٢) بن عبد الله المقدسي قاضي الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق (٣٨٣) الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسي قاضي الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفي سنة ٧٦٩، وناصر (٣٨٤) الدين نصر الله بن أحمد الكفائي المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن وفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به ستا وعشرين سنة، وعماد (٣٨٥) الدين الحنبلي أبو بكر بن أبي المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صف تجريد الأوامر والنواهي من كتاب الصحاح الستة، واختصر تهذيب الكمال للمزي.

ويختتم السيوطي فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد (٣٨٦) بن إبراهيم الكفائي العسقلاني الأصل المصري المولد، وفيه يقول: ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية،

(٣٨١) انظر في نجم الدين السيوطي ١/ ٤٨٠ والشذرات ٥/ ٤٢٨ والمنهل الصافي ١/ ٢٧٢.

(٣٨٢) انظر في عمر المقدسي السيوطي ١/ ٤٨٠ والشذرات ٥/ ٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/ ١١١.

(٣٨٣) راجع في موفق الدين السيوطي ١/ ٤٨١ والشذرات ٦/ ٢١٥.

(٣٨٤) انظر في ناصر الدين السيوطي ١/ ٤٨١ والشذرات ٦/ ٤٣٤ والدرر الكامنة ٥/ ١٦٣ وثناء الغمر

١/ ٤٦٦.

(٣٨٥) راجع في عماد الدين السيوطي ١/ ٤٨٢ والضوء واللامع ١١/ ٦٦ والشذرات ٧/ ٤٢.

(٣٨٦) انظر في الكفائي السيوطي ١/ ٤٨٤ والضوء واللامع ١/ ٢٠٥ والشذرات ٧/ ٣٢١.

ودرس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة، وله تعاليق وتصانيف ومسودات كثيرة في الفقه وأصوله والحديث والعربية، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعي توفي سنة ٨٧٦. ويظل الفقه الحنبلي ناشطا بمصر زمن العثمانيين، وفي كتاب تاريخ الجبرتي أسماه كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر ائمتهم مرعي (٣٨٧) بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة في المذهب، منها غاية المنتهى ويبد وأن المذهب الظاهري ظل معروفا مصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه، ونلتقي في كتب الراجم من حين إلى آخر بأسماء من كانوا يعتنقون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكي المتوفى سنة ٨٣١.

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم، ومر بنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة، وأول قضاتهم بمصر النعمان (٣٨٨) بن منصور التميمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة، كان في أول أمره مالكيًا، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية، وقدم معه إلى مصر فأسند إليه القضاء، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣. وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه "دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله" وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة

(٣٨٧) خلاصة الأثر ٤/ ٣٥٨.

(٣٨٨) راجع في النعمان ابن خلكان ٥/ ٤١٥ ولسان الميزان ٦/ ١٦٧ والشذرات ٣/ ٤٧ ومروءة الجنان ٢/ ٣٧٩ والنجوم الزاهرة ٤/ ١٠٦ ومقدمة كتاب المهمة في آداب أتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام.

الإسماعيلية. ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب المهمة في آداب أتبع الأئمة، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية.

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري. وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد (٣٨٩) الدين الكرمانى ولم يلبث أن يتوفي سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب "راحة العقل" الذي حققه ونشره المرحومان: الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة. وينزل مصر بعده المؤيد (٣٩٠) في الدين هبة الله الشيرازي أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية، وهى ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كير من المسائل العقيدية والفقهية، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم. ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه، وظلت غريبة في مصر، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة.

ومر بنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيان، فكان طبيعيا أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء

(٣٨٩) انظر في حميد الدين بروكلمان ٣/ ٣٥٥ ومقدمة كتاب راحة العقل.

(٣٩٠) راجع في المؤيد في الدين السيرة المؤيدية بتحقيق د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية

ص ١١٦، ٥٩.

الشافعية منكبين عليه، وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية، بل أيضاً إلى فقهاء المالكية والحنابلة. ولن نستطيع أن نلم بما كت في هذا الميدان لكثرتة، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه الهمة، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف (٣٩١) الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم. ولابن الحاج الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شرح مرارا وتكرارا، ولشمس (٣٩٢) الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحول في علم الأصول لفخر الدين الرازي. ولبهاء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع.

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام، فقد كانت تعتمد دائماً على ما يأتيها من الخارج، غير أنه لاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين الأيوبي غلب مذهب الأشعرى الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر: "وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة والمدرسة التي عرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحية وخانقاه سعيد السعداء بالقارة، فاستمر

(٣٩١) انظر فى الآمدى ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسبكى ٣٠٦/٨ والسيوطى ٥٤١/١ والعبر ١٢٤/٥

والشذرات ١٤٤/٥ ولسان الميزان الاعتدال ٢٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦.

(٣٩٢) راجع فى شمس الدين الأصفهاني السبكى ١٠٠/٨ والسيوطى ٥٤٢/١ والعبر ٣٥٩/٥

والشذرات ٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومراة الجنان ٢٠٨/٤.

الحال على عقيدة الأشعرية بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً لإدخال ابن تومرت رأى الأشعري إليها" (٣٩٣). ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبكار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفاً وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام العلوم والنبوات والمعاد. ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطاً حتى نهاية زمن العثمانيين.

التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطالع القرن الثالث للهجرة، وقد كتبت في جميع ألوانه: في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين، وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء. ويجان ذلك عٌينت بكتابة السيرة. ولها في كل ذلك نشاط واسع، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون. وأول ما يلقانا في ذلك في القرن الثالث للهجرة، السيرة النبوية لعبد (٣٩٤) الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها به إلى اليوم، وأنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية. ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد (٣٩٥) الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٥٧. ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمل بن عبد العزيز، وهي مطبوعة بالقاهرة.

(٣٩٤) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرته للسيهلي المسمى الروض الأنف: مقدمته، وعبر الذهبي ٣٧٤/١ والسيوطي ٥٣١/١ وإنباه الرواة ٢١١/٢. (٣٩٥) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣/٣٥ والسيوطي ١/٤٤٦، ٥٥٣ والديباج لابن فرحون والميزان للذهبي ٨٦/٣.

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبطي هو سعيد (٣٩٦) بن البطريق الذي تقلد منصب بطريك الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفي سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر، ويقول ابن أبي أطيعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب: باب عن النصارى وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم، وباب أو مقالة عن تواري الخلفاء والملوك المتقدمين، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم. وكتاب سعيد إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية. وذيل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكملة آخر فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطارقة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية. كان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد (٣٩٧) بن يونس بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون، وضمن ابن سعيد في كتابه لمغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة، وعليه اعتمد البلوي فيما كتبه عن ابن طولون وآله. ولابن الداية أيضاً كتاب في أخبار الأطباء مفقود، وكتاب في السياسة نشر في بيروت، وسنعرض في حدثنا عن النشر لكتابه "المكافأة". وكان يعاصره عبد الرحمن (٣٩٨) بن أحمد بن يونس الصدي المتوفى

(٣٩٦) انظر ابن البطريق في ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما بها من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله روزن في ليننجراد في القرن الماضي.

(٣٩٧) انظر مصادر ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

(٣٩٨) راجع ابن يونس في السيوطي ١/٣٥١، ٥٥٣ وابن خلكان ٣/١٣٧ وفوات الوفيات ١/٥٢٦

سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين: كتاب عن علماء مصر وكتاباً عن الغرباء الواردين على مصر، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون، وهو في تاريخ الصعيد. وملتقي بمحمد (٣٩٩) بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان: ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها، نشرهما جيست، وهما كتابان نفيسان. وملتقي في أوائل زمن الفاطميين بابن (٤٠٠) زولاق الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طنج الإخشيد، احتفظ بأكثره ان سعيد في كتاب المغرب: سم الفسطاط، وكانت له أيضاً - وفقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين، وتكملة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندي وطبع له كتاب أخبار سيويه المصري. ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى (٤٠١) بن علي الحضرمي المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصديقي، كما يلقانا الروذ بارى احمد (٤٠٢) بن الحسين معاصره وله تاريخ في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سمائه "بلشكر الأدباء" وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مراراً، وعليه ٩ اعتمد فيما ذكره من أخبار الحاكم. وكان يعاصره هو والطحان والمسيحي (٤٠٣) الأمير المختار عز الملك محمد بن عيد الله المتوفى سنة ٤٢٠، وقد ترجم

والشذرات ٢/ ٣٧٥ وعبر الذهبي ٢/ ٢٧٦.

(٣٩٩) انظر في الكندي السيوطي ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان ٣/ ٨٢.

(٤٠٠) انظر ابن زولاق في السيوطي ١/ ٥٥٣ وابن خلكان ٢/ ١٩١.

(٤٠١) انظر الطحان في ابن خلكان ٣/ ٢٢٣ وانظر بروكلمان ٦/ ٨٤.

(٤٠٢) راجع الروذباري في الغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٣.

(٤٠٣) انظر في المسيحي المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٦٤ وابن خلكان ٤/ ٣٧٧ والسيوطي ١/ ٥٤٤

له ابن سعيد في الغرب ترجم ضيافة ذكره فيها مصنفاته الكثيرة. وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين، وسماه "كتاب أخبار مصر وفصائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين" وقد نشرت من هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة. وتلقانا سيرتان أيام الفاطميين: سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية بل استيلائها قبل استيلائها على مصر، وهى منشورة، وأهم منها السيرة المؤيدة للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره، وفيما يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٢٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية.

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على (٤٠٤) بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطائحي. وللرشيد (٤٠٥) بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه "جنان الجنان ورياض الأذهان" ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأي الفسطاط والقاهرة من مصنفه "المغرب" في كثير من تراجمه. وبجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل "الرسالة المصرية" لأمية ن عبد العزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت،

والوافي للصفدي ٧/٤ والعبر ١٣٩/٣ والشذرات ٢١٥/٣ والجوهر الزاهرة ٤/٢٧١.

(٤٠٤) راجع مصادر ترجمة ابن مجب في ص ٤٠٥.

(٤٠٥) انظر في الرشيد ابن خلكان ١/١٦٠ ومعجم الأدباء ٤/٥١ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم

مصر ١/٢٠٠ والشذرات ٤/١٩٧. والسيوطي ١/٥٤٠.

وعداده في الأندلسيين. ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن زريك، ورسالة لان جبر يحيى بن حسن ألفها في مدائح بنى أسامة سنة ٥٢٥. وملتقى بالقرطبي محمد (٤٠٦) بن سعد الذي ألف لشاور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر، وتاريخ وفاته غير معروف. وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي الفسطاط والقاهرة من كتابه المغرب. وكان يعاصره على بن أبى السرور الروحي وله تحفة الظرفاء في أخبار الأنبياء والخلفاء إلى الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويظن أنه ألفه بالإسكندرية سنة ٥٦٧ وطبع في القاهرة من تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠. وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأرمني، وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نشر الجز الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥. ويلقانا في زمن الأيوبيين أو طاهر السلفي المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقبهم. وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد، إذ تكثر ترجمة العلماء لشييوخهم، مما يلقى أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهودهم. وكان يعاصره الشريف النسابة محمد (٤٠٧) بن أسعد الجواني الحسيني، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبين وتاج الأنساب.

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية. ولعلي بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣

(٤٠٦) انظر في القرطبي المغرب قسم الفسطاط ص ٢٦٧.

(٤٠٧) انظر في الجواني الخريدة (قسم مصر) ١/ ١١٧ ولسان الميزان ٥/ ٧٤.

كتاب الدولة المنقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢. ومَرَّبنا ذكر الحافظ عبد الغنى بن الخنابلة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال. وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي (٤٠٨) على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحمدين من الشعراء. وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء. اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمي مختصره "تاريخ الحكماء" طبع في ليبزج والقاهرة، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء.

ونمضى إلى زمن المماليك وفي عهدهم تدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير، ويلقانا المكين (٤٠٩) بن العميد، وهو جرجيس (أبو عبد الله) بن أبي اليسيرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين: القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربي في لندن سنة ١٦٢٥ للميلاد وتُرجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس. وكان يعاصره ابن ميسر (٤١٠) تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة

(٤٠٨) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٥/١٧٥ والطالع السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٥/٢٣٧ وفوات

الوفيات ٢/١٩١ والسيوطي ١/٥٥٤.

(٤٠٩) انظر المكين في بروكلمان ٦/١٤٤ ودائرة المعارف الإسلامية.

(٤١٠) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٦/٩٠.

لكتاب المسبّحي آنف الذكر. للشاعر المعروف اسم الجزار المتوفى ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة. ولابن (٤١١) الراهب القبطي أبى شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطاركة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣. وحرى بنا أن نذكر هنا ابن (٤١٢) خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحققاً نشأ بالموصل، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس: وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢. ويلقانا محيى (٤١٣) الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون" باسم: تشريف الأيام والعصور في السيرة الملك المنصور قلاوون وهى منشورة، وله أيضاً سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشراف خليل بن قلاوون، وأيضاً له خطط القاهرة.

ونلتقي في القرن الثامن بالدوادار (٤١٤) ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زبدة الفكرة من تاريخ الهجرة. وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلداً، وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات

(٤١١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ١٤٦/٦.

(٤١٢) انظر مصادر تجرمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق.

(٤١٣) راجع مصادر ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥.

(٤١٤) انظر في الداوادر الدرر الكامنة ٤٣/٢ والشذرات ٦٦/٦ ودائرة المعارف الإسلامية.

لبعض أجزائه. وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب. وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية. وأشرنا هناك أيضاً إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار، وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه. وملتقي بالحافظ ابن (٤١٥) سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية: "عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير". وها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام، بل تضيف إلى ذلك المراجع في كتب الحديث مثل صحيح البخاري. ويلقانا الإدفعي (٤١٦) جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد. وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطي وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم "النهج السديد والدرر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد" يشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر قلاوون وتاريخ بطارقة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والهند وتاريخ التتار، نشر منه القسم الخاص بسلاطين (٤١٧) المماليك. وملتقي بالحافظ مغلطاي المار ذكره بين المحدثين، وله سيرة نبوية باسم "الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم" ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية.

(٤١٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١، ٤٢٥ والبدر الطالع ٢٤٩/٢ والنجوم ٣٥٦/٧

وطبقات القراء ٣٨٦/١ والدرر الكامنة ٤/٣٣٠ والسبكي ٩/٤٦٨.

(٤١٦) راجع في الإدفعي السيوطي ٥٥٦/١ والشذرات ١٥٣/٦ والدرر الكامنة ٧٢/٢ والبدر الطالع

١٨٢/١.

(٤١٧) بروكلمان ١٤٦/٦.

ويلقانا بها الدين السبكي الذي ذكرناه بين فقهاء الشافعية، وله كتابه النفيس "طبقات الشفاعة". ونراه يصل التاريخ بالمجتمع في كتابه "معيد النعم" وهو يلتقي بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابي، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا، والسبكي يتجه في "معيد النعم" نفس الوجه في المجتمع المصري، فيصور المثالية، ولا يكتفي بذلك، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال، ولكي يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا: من السلطان ونوابه وموظفي الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية وخزنة الكتب ومعلمي الكتاتيب والوراقين وأصحاب الزراعة والصناعة والتجار وأصحاب الحرف المختلفة، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين. كل هؤلاء ستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغي أن تكون عليه من صورة مثالية. وبذلك رسم المجتمع المصري بكل معاييه وما ينبغي أن يكون عليه من هيئة فاضلة.

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن (٤١٨) الفرات ناصر الدين محمد بن عد الرحمن المتوفى سنة ٨٠٧ وله كتاب "تاريخ الدول والملوك" بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا. وكان يعاصره ابن دقماق (٤١٩) صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار. خص كل

(٤١٨) انظر ابن الفرات في السيوطى ٥٥٦/١ والضوء اللامع ٥١/٨.

(٤١٩) انظر ابن دقماق في السيوطى ٥٥٦/١ والشذرات ٨٠/٧ والضوء اللامع ١٤٥/١.

جزء منه بمدينة، وقد نشر فولرز منه الجزءين الخاصين بالقاهرة والإسكندرية، وله كتاب في تراجم الصوفية، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثني عشر مجلداً وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه لسلطان برقوق وله فيه سيرة سماها "عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برقوق" وتكثر في هذا العصر كتابه سيرة السلاطين. وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى، وهو سجل تاريخي حالف بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحاكم في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة. وله مصنفات مختلفة.

ونلتقي بالمقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه "الخطط" وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر، ويفيض في الحديث ن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارستانها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية، ويتحدث عن الدول التي أظلتها، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكري بتاريخها السياسي والاجتماعي والروحي والحضاري، إذ حول المقريزي التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية عن تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة. وله سيرة نبوية في ستة مجلدات بام "إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع" وله اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفاء في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقفي في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبة على الحروف الأبجدية، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧-٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، وكتاب

البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة. وكان يعاصره ابن حجر (٤٢٠) الذي مر ذكره بين المحدثين، وعنى بالتأليف في التراجم، وله كتاب الإصابة في تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب في اثني عشر مجلداً وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، وكل هذه الكتب مطبوعة، وله أناء الغمر بأبناء العمر، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه.

ويلقانا أبو المحاسن جال الدين يوسف بن تغرى (٤٢١) بردى المتوفى سنة ٨٧٤، وله كتابه النفيسة "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" يؤرخ فيه لمصر منه دخلها عمرو بن العاصر وأضاءت فيها أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات. وعادة يقدم لسنوات كل وال أو خليفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشئون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحي العلمية. وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها، بل يذكر مع سنواتها دائماً تاريخ الدول العربية، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأدباء في العالم العربي، وأيضاً مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها. وكانت له علية فذة استطاع بها أن

(٤٢٠) انظر ابن حجر في السيوطي ٣٦٣/١ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البهية للكنوى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي لمحمد مصطفى زيادة ص ١٧.

(٤٢١) انظر ابن تغرى بردى في الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية في أبي المحاسن، وزيادة ص ٢٦.

يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سوق كثير من الطرائف الأدبية والاجتماعية. والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلداً. وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم، وصنع له مختصراً باسم الدليل الشافي على المهل الصافي وهو منشور في مجلدين.

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتاباً في تراجم الحنفية سماه "تاج التراجم" وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء. وملتقى بشمس (٤٢٢) الدين السخاوي محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن، وقد عدنا إليه مراراً فيما أسلفنا من حديث، وله ذلك على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئ، وذيل لآخر لكتاب أستاذه الثاني ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، وقد خصه بترجمة حياته.

(٤٢٢) انظر في السخاوي مقدمة كتابه الضوء وكذلك ج ٨ قام ١ والكواكب السائرة للغزى ٥٣/١ والشذرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر للعيدروسي ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩.

ويتوج السخاوي هذا النشاط التاريخي العظيم بكتابه: "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلام العربي. واسم الكتاب يوحى بأنه دفاع عن التاريخ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحاً وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان، وأخذ يصور فوائده في التربية الدينية والخلقية والشئون الاقتصادية وأيضاً الشئون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواعد من تدبير شئون الجيش، وبالمثل الشئون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات. ويعرض التفصيل لما ينبغي أن يتوفر في المؤرخ من شروط العدالة والتحري والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطلب في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديه لأسباب عقيدة أو مذهبية أو شخصية، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم. وينحى باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية. وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي. ويفيض في بيان التحري في الروايات الرواة ويبسط الحديث في نقد المؤرخين وكتاباتهم التاريخية. الكتاب بالغ الروعة والنفاسة.

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي، وطبقات المفسرين وبغية الوعاء في طبقات اللغويين والنحاة، وحسن المحاضرة وهو مبثوث في الهوامش، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان

قايتباي، ومسالك الحنفا في والدي المصطفى، ولب الألباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه اكتب منشورة. وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للأمام مالك سيرة للنووي. ويحتّم زمن الممالك بان إياس محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه "بدائع الزهور في واقع الدهور، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مر، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أفاض في التاريخ إفاضة واسعة، حتى ليذكر وفيات كل شهر، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر بيناً ما الحقوا بها من دمار ونهب لكنوزها وصاعاتها وعلماؤها صناعة المهرة، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة.

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين، وأول مؤرخ نلتقي به في عهدهم ابن زنبل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفاً في ديوان الجيش العثماني، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم. ويصف معاركه مع الجراكسة في شمال الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته استانبول. يلقانا عبد الوهاب الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ ولقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه، وهو مطبوعة مرارا، ويلقانا في القرن الحادي عشر الهجري زين الدين بن أبي السرور البكري محمد الصديق وابنه شمس الدين محمد ولهما كتب مختلفة في العثمانيين، وأهم منها عبد (٤٢٣) الرؤوف المناوي المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب

(٤٢٣) راجع المناوي في خلاصة الأثر ٢/ ٤١٢ والبدر الطالع ١/ ٣٥٧.

الدرية في تراجم السادة الصوفية، وصنف كتاباً في الأحكام السلطانية وكتاباً في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول" وهو مطبوع. ونلتقي بنور (٤٢٤) الدين الحلبى على إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة، وهى مطبوعة مراراً. ويلقانا شهاب (٤٢٥) الدين الخفاجى؛ مد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ريجانة الأنبار ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مراراً. وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦. وظلت مصر موئلاً للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة. ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نفخ الطيب وأزهار الطيب الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين.

(٤٢٤) راجع نور الدين الحلبى فى خلاصة الأثر ١٢٢/٣.

(٤٢٥) انظر مصادر ترجمة الخفاجى فى مصر ٤٥٩.